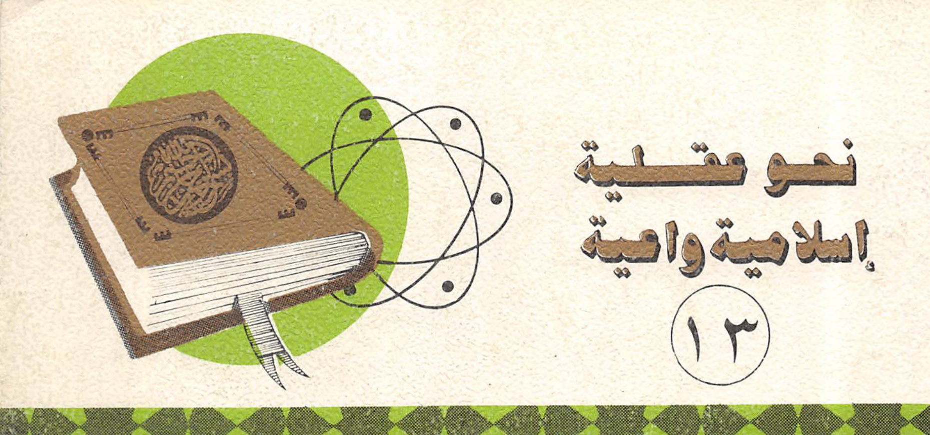
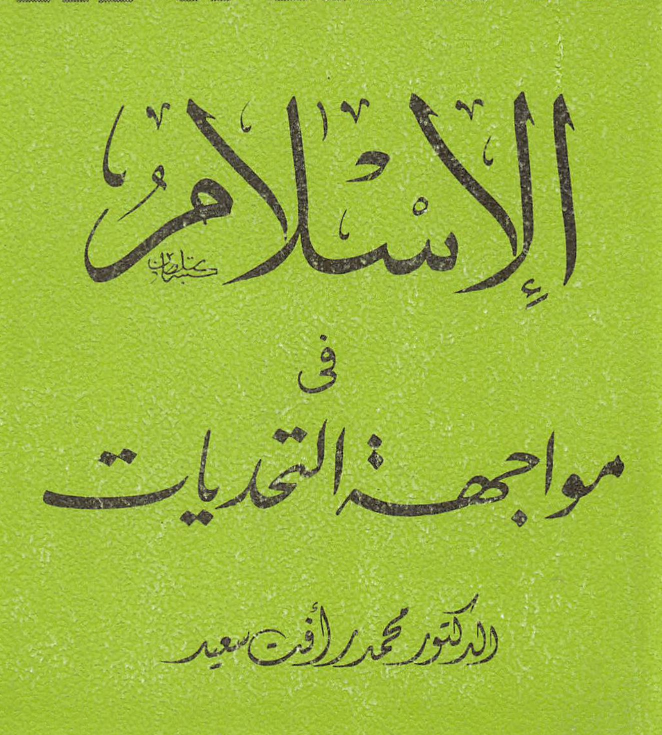

نحو عقلية
إسلامية واعية
١٣


الإسلام
فى
مواجهة التحديات
الدكتور محمد رأفت سعيد


الوفاء
للطباعة والنشر

هذا الكتاب

منذ أن سطع نور الإسلام وصدع النبى الكريم صلى الله عليه وسلم بأمر ربه والإسلام يواجَه بتحديات المغرضين وتحريف المبطلين إلا أن الإسلام المنزل من عند الله المنزه عن الباطل تتهاوى أمامه هذه التحديات رغم قوتها .

ولا يزال الحق والباطل يصطرعان وسيظلا هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فمازال الإسلام مستهدفا ولا يزال الباطل متبجحا معاندا رغم زيف منهجه وتهافت يقينه . ولما كانت التحديات مستمرة كان من الخير تتبعها والوقوف على صورها وأسبابها وكيف واجهها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلفنا من بعده ليكون لنا فى مواجهتهم لها أسوة وإرشاد .

وقد وضَّحَتْ هذه الدراسة صور التحديات قديمًا وحديثا وكيف كانت خروجا عن المنطق السليم حيث يواجه المعروف بالنكرات ويقابل الإحسان بالسوء .

والله نسأل أن يُحَصِّنَ الإسلام وأن يعز أهله

وعلى الله قصد السبيل

دار الوفاء





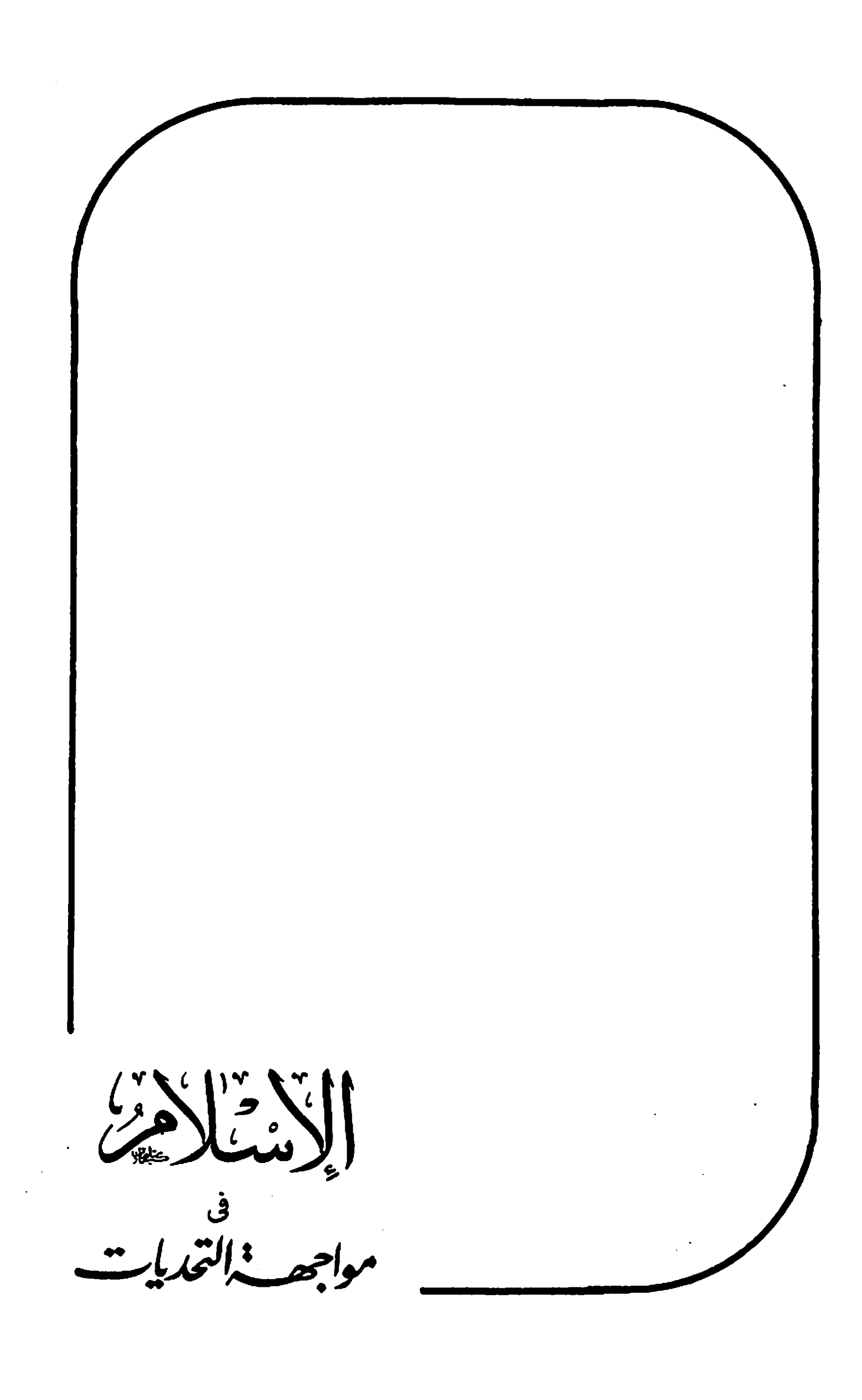


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش . م . م - المنصورة

التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣

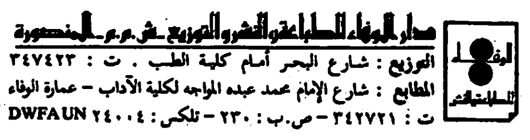
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة الوفاء

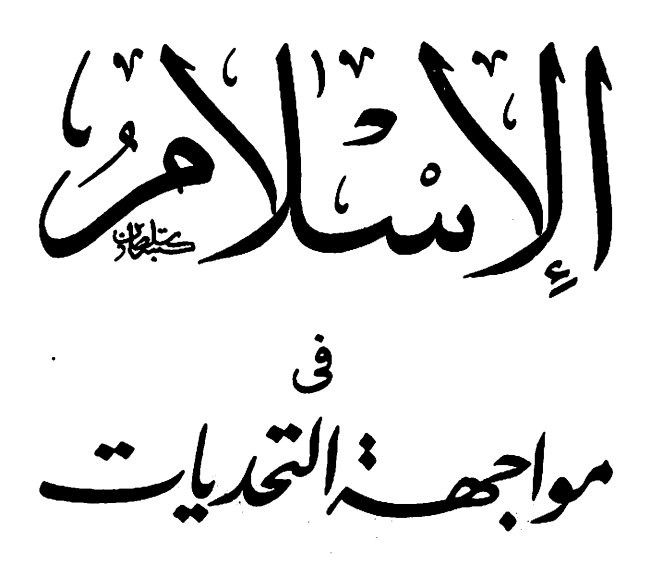
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠ - تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



الإسلام
في
مواجهة التحديات

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م - المنصورة
التوزيع : شارع البحر أمام كلية الطب . ت : ٣٤٧٤٢٣
المطابع : شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب - عمارة الوفاء
ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠ - تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN



الدكتور محمد رأفت سعيد

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - ش.م.م.


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونستهديك ، ونصلى ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك سيدنا محمد .... وبعد :

فمنذ أن صدع النبى — ﷺ — بأمر ربه ، والإسلام يواجَه بتحديات شتى ولكنها — مع قوتها — تتهاوى أمام بنائه الشامخ القوى المتين .

ولما كانت التحديات مستمرة إلى يومنا هذا ، وجدت من الخير أن أتتبعها لنقف على صورها ، وأسبابها ، كيف واجهها رسول الله — ﷺ — ليكون لنا من مواجهته لها أسوة وإرشادا .

ولما كانت هذه التحديات مستهدفة — منذ نشأتها إلى الآن — كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله — ﷺ — ، ورسول الإسلام محمد — ﷺ — ، والأئمة من بعده ، والأحكام الشرعية ، والسيرة والتاريخ الإسلامى ، واللغة العربية وآدابها ، وواقع المجتمعات المسلمة قديما وحديثا ؛ وجدت أن مساحة الانتفاع بدراسة هذه التحديات كبيرة ، وأن على المشتغلين بالمجالات السابقة أن يتعرفوا على مصادر الخطر والتحديات ، وأن يعوا أسبابها ، وأن يفقهوا المواجهة الصحيحة لإحباط خططها ، التخلص من آثارها .

من أجل هذا كانت دراستى هذه ، والتى استعنت بالله فى القيام بها على الرغم من ضخامتها واتساع مساحتها ، ولذلك جعلت منهجى لهذه

الدراسة قائما على التركيز الشديد ، والرصد الدقيق ، وإلا فإن كل مظهر من مظاهر هذه التحديات جدير بدراسة كبيرة وحده . وستكون هذه الدراسة ــ إن شاء الله فى الفصول الآتية :

الفصل الأول : صور التحديات القديمة .
الفصل الثانى : صور التحديات المعاصرة .
الفصل الثالث : أسبابها ومواجهتها .

ولا أزعم الحصر لصور التحديات كلها ، بل هذا مايسر لى عرضه فى هذه الدراسة .
وأسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، وأن يمنحنى فيه التوفيق والسداد .

وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أُنيب .
وصلى الله على سيدنا محمد .

تمهيد

حالة المجتمعات البشرية قبل الإسلام

عند لحظات التأمل الصافية يجد المرء نفسه مغمورا بنعم ربه التى لاتعد ولاتحصى ، ويجد فى قمة هذه النعم أن يمن الله على البشرية ببعثة خير البرية ﷺ : ﴿ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ .

ونستطيع أن نقف على حقيقة هذه النعمة إذا نظرنا إلى واقع المجتمعات البشرية قبل البعثة ، وكيف كان يكون حالنا الآن لو امتد هذا الواقع فظل على حالته الأولى ؟

إن واقع المجتمعات قبل البعثة يمكن وصفه بهذه الكلمة (ضلال) ، ولم يكن ضلالا خافيا وإنما هو (ضلال مبين) فى جوانب الحياة كلها ، ضلال فى العقيدة ، تبعه ضلال فى التصورات عن الكون وعن الإنسان وعن الحياة .

وإذا فسدت العقيدة وفسد التصور لدى الإنسان فإن سلوكه مرتبط بهذا الفساد وأثر من آثاره ولكى نجلى هذه الحقيقة لتتجلى لنا حقيقة النعمة ، نعرض صورا سريعة لهذا الضلال : ماذا تقول فى رجل يجعل معبوده فى صنم يصنعه من حجر أو خشب أو غير ذلك ، ثم يربط حياته به ، فينذر له رغبة

---

(١) سورة آل عمران : آية ١٦٤ .

ورهبة ، ويتقرب إليه فى سفره وإقامته ، ويرجو منه المزيد من المال ، ويستعين به لدفع الضر ؟

وإذا حوصر العابد الضال ووجد نفسه على غير صواب خفف الأمر عقليا بأنه لايعبد هذ الصنم لذاته ؛ وإنما يعبده ليقربه من الله الخالق ﴿ مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [1]

وماذا تقول فى إنسان ينظر إلى الحياة الدنيا على أنها كل شىء ولا شىء بعدها ؟ وينطلق من هذا التصور ليضع لنفسه نظاما يتفق مع هذه النظرة ، فلا حياة إلا للأقوياء ولا وجود إلا للظالمين ؟

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لايظلم الناس يظلم

وماذا تقول فى نفس تواجه الحياة بنوائبها على أساس هذا التصور ؟ .

إن هذا التصور جعل اللذات أيا كان نوعها مغنما ، وجعل ما يصيب الإنسان من مكروهات كوارث قاصمة ، فالخنساء — مثلا — فى هذا التصور لاتقوى على مواجهة فقد أخيها « صخر » ، فتفكر فى الانتحار .

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلت نفسى

وماذا تقول فى إنسان يعلق حياته الزوجية بعقدة فى شجرة تلعب بها الرياح ، فإن عاد من سفره فوجدها أمسك زوجته ، وإن عاد فوجدها قد حلت حل رباط الزوجية لأنها خائنة ؟

(١) سورة الزمر : آية ٣ .

ماذا لو امتدت مظاهر هذا الضلال المبين ؟ وماذا لو أبقى على الجاهلية بظلماتها المطبقة ؟

ولكن جاء الحق وزهق الباطل ، وجاء الهدى فأذهب الضلال المبين ، وجاء النور فبدد الظلمات .

وكان من فضل الله العظيم أن أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

ولاتحسبن هذا الضلال قاصرا على البيئة العربية وحدها ، بل عم فارس والروم ، وصور الضلال واحدة فى العقيدة ، والتصور ، والسلوك ، مع فارق البيئات واختلاف أشكال هذه الصور .

وجاء الرسول بالتوحيد ، وعرف الناس بربهم ، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ، وعرفهم حقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله ، فآمن من آمن وربى على حقائق الإيمان ، فظهرت آثاره فيهم ، تصورا صحيحا للناس وللحياة والعلاقات الإنسانية والاقتصادية والاجتماعية والعربية ، وصار السلوك قائما على مكارم الأخلاق ، وصار العلم سبيلا يتبع فى حياتهم .

ووجدنا خير أمة أخرجت للناس ، ووجدنا الخنساء نفسها ــ وقد شهدت الحياتين ــ تقول فى استشهاد أبنائها الأربعة : الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم جميعا ، وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

لقد أنقذت البشرية من الضلال المبين ، ومدت بأسباب الحياة فى جوانبها كلها ، وكان عطاء ربانيا ينميها نماء معتدلا متسقا جميلا ، وظل عطاؤها

فى كل أثر جميل ، مادى أو معنوي فى عالمنا المعاصر ، وأما مانراه من سوء فإنما هو عود غير حميد إلى صنور الضلال المبين .

وإذا تذكرنا هذه النعمة وقلنا : لو قدم إلى إنسان معروف يصلح من شأنه ، ويرفع من قدره ، ويعيد إليه مكانته التى تليق بإنسانيته ، وتشعره بوجوده ، وأهميته فى هذه الحياة ، فماذا ترى من التصرف المنصف العاقل من هذا الإنسان المحظوظ بذلك المعروف ؟ ستقول : من المسلمات أن يقابل هذا المعروف بالثناء الجميل ، والحب الكبير لمسدى هذا المعروف ، ومحاولة إرضائه بكل مايستطيع الإنسان .

ولكن الذى حدث مع رسول الله — ﷺ — كان غير ذلك ، فقد ووجه بالتحديات منذ أن صدع بأمر ربه ، وهذا يدعونا إلى دراسة هذا الموقف العجيب والمخالف للمنطق العقلى السليم لنقف على الأسباب والبواعث وراء هذه التحديات التى اتخذت صورا شتى .

فالعجب من شأن قوم جاءهم رسول كريم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، لقبوه بالصدق والأمانة ، حتى صار قول الناس عنه فى الذهاب والإياب : حضر الصادق الأمين ، وصنع الصادق الأمين ..... وهكذا .... وحكموه فى معضلات الأمور ، قدم لهم صفحة ناصعة البياض من عمر كريم مبارك قدره العظيم أربعون سنة ويزيد ، لم يروا فيه إلا مكارم الأخلاق ، جاءهم ليخرجهم من حالة وصلوا بها إلى الهاوية ، جهل بالله تعالى وصفاته ، سفه وطيش وتنازع وتناحر وفساد خلقى ذاق المجتمع مرارته ، فهل يلفظ المريض الدواء إلا إذا أراد لنفسه الموت ، وهل يرفض الإنسان الخير إلا إذا كان مختل العقل والقلب ؟

المفاجأة والتحديات :

وقد يقول قائل : إن مواجهة الرسول بالتحديات قد ترجع إلى مفاجأتهم بما لم يألفوه من عقيدة وتصورات وسلوك .

والقول بالمفاجأة لا يجد مايسنده من دليل ، لأن الرسول — ﷺ — قد سلك بالناس مسلكا يجنبهم صدمات المفاجأة ، وذلك بتوجيه من ربه ، فاختار — وهو المبعوث للعالمين أجمعين — أعقل الناس ليخاطبهم مخاطبة فردية ، وحدثهم عن دعوته ، فأسلم أبو بكر ، وأسلمت قبله خديجة أم المؤمنين ؛ لأنها كانت أول من تلقى نبأ الوحى عندما جاءها الرسول الكريم يرجف من رؤية الملك ، وكان منها الموقف الكريم ، والتثبيت العظيم ، والتبشير وذكر المحاسن التى معها لايكون الخزى أبداً « إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق »(1) وأسلم على — رضى الله عنه — ودعا أبو بكر غيره .... وهكذا .... كان سير الدعوة بتدرج رفيق ، وانتشار لطيف لمدة ثلاثة أعوام ، حتى شاع الخبر وذهب عنصر المفاجأة .

وكان التدرج الحكيم فى أسلوب الدعوة والذى اختاره الله لرسوله أن ينذر عشيرته أولا ، وأن تعرض الدعوة والإنذار ، والتبشير لأم القرى أولا ، ثم يكون بعد ذلك لمن حولها ، وتتسع الدائرة اتساعا منطقيا لتشمل العالمين .

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ١ / ٢٥٩ والسيرة للذهبى ٨٤ وانظر : صحيح البخارى — باب كيف كان بدء الوحى ١ / ٢ .

وكنا نتوقع أن نجد فى هذا التسلسل قبولا مطلقا ، وشكرا على هذه المنة دون مواجهة من أحد ، وخاصة ممن هم فى حاجة ملحة إلى إنقاذ مما وقعوا فيه من جاهلية ، ولكن حدث غير ما توقعنا ، بل ومن الدائرة الأولى دائرة الأقربين .

قال ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ لما نزلت الآية : ... ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ صعد النبى ــ ﷺ ــ على الصفا فجعل ينادى : يابنى فهر يابنى عدى ــ لبطون قريش ــ حتى اجتمعوا ، فجعل الذى لم يستطع أن يخرج يرسل رسولا لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش ، فقال النبى ــ ﷺ ــ : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا : ماجربنا عليك كذبا ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد ، فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزل قوله تعالى ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ .

ولما كان هذا الموقف من أبى لهب بداية لمواجهة ساخنة لرسول الله ــ ﷺ ــ ولمن آمن معه دون مبرر منطقى معقول ، كان علينا أن نبحث الأسباب الأخرى التى يمكن أن تكون وراء مثل هذا الموقف الغريب والمتكرر على مر التاريخ ، لأنه فى منطق العقل السليم لايكون جزاء الإحسان إلا الإحسان .

---

(١) انظر : فقه السيرة للغزالى : ١٠٠ ــ ١٠١ .



الفصل الأول
صور التحديات القديمة

صور التحديات القديمه

إن غلق باب الفكر أمام ما يعرض على الإنسان ليس فى صالحه ، فإن الذى يُعْرَض ينبغى أن يُنْظَر إلى عارضه ومقدمه ، فإن كان ثقة فى الناس ، حرصا عليهم ، عرف بالحكمة ، فمن العجز والحرمان أن ينصرف الناس عن دعوته ، فإذا أضفت إلى ذلك حالة الإنسان ومدى حاجته إلى دعوة هذا الداعى الأمين ؛ كان الإنصراف هلاكا ؛ وليس حرمانا فحسب .

وإذا كان الداعى على غير هذه الصفات ؛ فمن الحكمة أن تنظر كذلك فيما يدعو إليه لتبطله بالحجة ، أما أن يكون الإعراض بلا تفكير ، أو أن يكون وصم الداعى ودعوته بعيوب مداعاة لا تتطابق مع واقع ما يدعو إليه ، فإن هذا يدعو إلى العجب ، بل والأعجب منه أن تنشب المعارك الطاحنة بين قوم يقدم لهم مافيه خيرهم ، وبين من يقدم لهم هذا الخير .

وتأخذ هذه المعارك صورا تدل على ماوراء هذا الرفض والعناد من حقد مدمر وتناقض نتيجة العمى الذى يورثه هذا الحقد .

أولا : الفتنة فى الأبدان والأموال :

فمن هذه الصور الفتنة التى مست الرسول ــ ﷺ ــ ومن آمن معه فى الأبدان ، بدءا من وضع الشوك فى الطريق ، وإلقاء النجاسات على جسده وهو ساجد ، والتجويع نتيجة المقاطعة الاقتصادية ، وانتهاء بمحاولة قتله . فالعجب من موقف رجال من قريش مع رسول الله ــ ﷺ ــ ، يريد حياتهم الطيبة ، ويريدون تدميره والقضاء عليه .

« مشى رجال من قريش إلى أبى طالب وقالوا : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه

عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه »[1]

ألم يكن من المعقول أن ينظر هؤلاء فيما يدعوهم إليه ، بدلا من أن يمشوا إلى أبى طالب ؛ ليُسكت ابن أخيه أو ليسلمه لهم ليقتلوه ؟

وإذا فهموا أن فى كلام رسول الله — ﷺ — سبا لآلهتهم وعيب دينهم ، وتسفيه أحلامهم ، فهل نظروا فى حقيقة ماهم عليه ، حتى يدركوا صدق رسول الله فى إنقاذهم من هذا السفه ، ومن ضلال عبادة الأصنام ، وقطع الارتباط بتقليد الآباء فى ضلالهم ؟

لم يفعلوا ذلك ، ولكنهم مشوا مرة أخرى والعمى مستمر ، مشوا إلى أبى طالب « فقالوا له : ياأبا طالب إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لانصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك — أى نحاربكما — فى ذلك حتى يهلك أحد الفريقين »[2]

إنها متابعة ، ولكنها متابعة حمقاء : فهل يتابع الإنسان الحرص على مايضره ويهلكه ؟ إنها متابعة منهم لأبى طالب ليكف ابن أخيه عن تقديم الخير لهم ،وتهديد بالحرب المهلكة .

وتستطيع أن تضحك عجبا من مشيهم الآتى إلى أبى طالب مرة ثالثة :

(مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى — أشده وأقواه — فى قريش وأجمله — فخذه

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام ١ / ٢٧٧ .

(٢) انظر : المرجع السابق : ١ / ٢٧٨ .

فلك عقله ـــ أى ديته إذا قتل ـــ ونصره ، واتخذه ولدا فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذى قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم ، فنقتله ، فإنما هو رجل برجل) .[1]

أرأيت طبيعة التفكير ؟ يعطونه ولدهم ليغذوه ، ويعطيهم ابن أخيه ليقتلوه ، ويغرونه بدية عمارة إذا قتل .

أرأيت قيمة الإنسان فى أعراف الجاهلية ؟ وأنهم فى أشد الحاجة إلى وحى ربهم لينقذهم ؟ ولكنهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا واستكبروا استكبارا .

والمرء عندما ينصرف عن خير دعى إليه ، فذلك حرمان له يصيبه ، وعندما يعرض عن إنذار له من شر يقيم عليه ، فإن الشر سيهلكه ، وذلك الإعراض الذى يخوضه يدل على قصور فيه ، وجهل يعميه عن التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، ولكن يبقى ذلك فى دائرته ، أما أن تجد المدعو لايكتفى بهذا الإعراض ، وتمتد يده الآثمة لتؤذى الداعى ، فإن ذلك يدل على حماقة بالغة ، ونفسية خبيثة ، وحقد دفين ، وأثرة مفرطة فقد يكون فى الدعوة خير للآخرين ، وحماية لهم من مظالم هذا الحاقد الخبيث .

وتزداد درجة الحماقة والحقد والحسد فيه عندما يجده لايكتفى بإيذاء الداعى ، وإنما يغيظه أن يرى إنسانا آخر فى مجتمعه فتح عينيه ، وأعمل عقله ، وأصغى بقلبه ، واستجاب بجوارحه للدعوة التى رفضها.هذا الحاسد الحاقد ، فتمتد يده بالأذى لمن آمن واستجاب ، وأقام من نفسه قيما على

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام : ١ / ٢٧٩ .

عقول الناس وتفكيرهم ، فلا ينبغى أن يروا إلا مايرى ، وينبغى أن يكونوا تبعا له فى جهالته .

بمثل هؤلاء تعوق الأمم وتشغل بسفاهتهم ، وكل هذا وقع مع الداعى الكريم والناصح الأمين رسول الله محمد ـ ﷺ ـ ، فكان عليه الصلاة والسلام فى صلاته يرمى عليه ـ وهو ساجد ـ بكرش الجزور ، أو رحم الشاة المذبوحة ، وكانت الأنجاس تلقى أمام بيته ، فهل هذه مواجهة عاقلة .

والعجيب أن هذا الأذى من المشركين لم يقتصر على الرجال ، بل لعبت فيه بعض النساء دورا يدل على تبييته فى البيوت ، إفلاسا من المواجهة الصحيحة والتفكير المفيد .

فكانت أم جميل ـ امرأة أبى لهب ـ تحمل الشوك وتطرحه على طريق رسول الله ـ ﷺ ـ ورأته مرة وهو جالس بالمسجد ، وبيدها حجر تريد أن تضربه به ، فصرف الله بصرها عنه فلا ترى إلا أبا بكر فقالت : يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه ، أما والله إنى لشاعرة ، ثم قالت شعرا تهجو به الرسول

مذمما عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت ، وقال أبو بكر : يارسول الله : أما تراها رأتك ؟ فقال ـ ﷺ ـ مارأتنى لقد أخذ الله بصرها عنى[1]

وتشم فى كلام امرأة أبى لهب رائحة الاستعلاء القائم على الحسد ، فعندما تطرح الشوك على الطريق أمام رسول الله ـ ﷺ ـ حسدا وحقدا

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام : (١ / ٣٨١ ـ ٣٨٢) .

فهذا عمل عادى ، لاتلام عليه ، بل لاتريد أن تسمَّى به ، أى أحـزنها أن تسمَّى ـ حمالة الحطب ـ ، وناقضت شهادة أهل مكة جميعا فى رسول الله ـ ﷺ ـ عندما هجت وقالت « مذمما » ـ وهو محمد صاحب الخلق العظيم ـ عند من آمن به وعند من لم يؤمن به ، ولكنه رفض الخير وكره ما جاء به دون تفكير [قاتل الله الحسد كم أعمى قلوب الكثيرين فحرمهم مما فيه خيرهم] .

وهذا الذى مس رسول الله ـ ﷺ ـ من الأذى قد شمل أصحاب النبى ـ ﷺ ـ على اختلاف فى درجاتهم من حيث الانتماء إلى قوة عصبية تدفع عنهم بعض الأذى ، ويحسب لها حساب من قبل المشركين ، فهذا عمار وأبوه ياسر وأمه سمية كان المشركون يخرجونهم إلى الأبطع إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها ومر بهم النبى ـ ﷺ ـ وهم يعذبون ، فقال : صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة .(١)

ولم يكن التعذيب لفترة زمنية يسيرة أو بدرجة معقولة ، وإنما كان يشتد ويستمر إلى درجة الاختلاف ، فمات ياسر فى العذاب ، وأما سمية فأغلظت القول لأبى جهل بعزة إيمانها ، فتصرف معها أبو جهل تصرفاً لايليق بالرجال ، فطعنها فى قبلها بحربة فى يديه ، فماتت ، وهى أول شهيدة فى الإسلام ، وأما عمار فشددوا عليه بالحر تارة ، وبوضع الصخر على صدره تارة أخرى وكذلك التفريق .(٢)

---

(١) انظر : فقه السيرة للغزالى : (ص ١٠٧ ، ١٠٨) .
انظر : المرجع السابق .

وأما بلال فتعذيبه مشهور فكان أمية بن خلف إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يقلبه على الرمال الملتهبة ظَهْراً لبطن ، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ، ثم يقول له : لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد . وتعبد اللات والعزى فما يزيد بلال عن ترديد أحد أحد [1]

وهذا اللون من التعذيب البدنى كان محاولة من المشركين فى التأثير على المؤمنين ، ليعودوا عن إيمانهم ، ولكن مع شدته لم يحقق النتيجة التى يبتغيها المشركون ، وثبت لهم أن قوة الإيمان إذا بلغت منتهاها فى القلوب عجز الحديد والنار عن اقتلاعها .

على أن المشركين لم يكتفوا للتأثير على المؤمنين بهذه الفتنة البدنية ، وإنما سلكوا سبيلا آخر وهو الفتنة فى الأموال ، التى شملت المقاطعة الاقتصادية ، والمغالاة فى الأسعار ، وكذلك الاستيلاء والمصادرة لأموال المؤمنين ، ظنا منهم أن هذا الأسلوب سيحدث أثره فى قلوبهم .

قال ابن إسحاق :

(فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد نزلوا بلدا أصابوا به أمنا وقرارا ، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم ، وأن عمر قد أسلم ، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وجعل الإسلام يفشو فى القبائل ، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتابا يتعاقدون فيه على بنى هاشم ، وبنى المطلب ، على أن لاينحكوا إليهم ، ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئا ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك كتبوا فى صحيفة ، ثم تعاهدوا

---

(١) انظر : المرجع السابق : ١٠١ .

وتواثقوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم[1]

ولايتصور أن هذه المقاطعة كانت أمراً هينا ، بل كانت شديدة على أصحاب النبى وعلى أهله إلى درجة نقف على حقيقتها عندما نقرأ كلام سعد ابن أبى وقاص ــ رضى الله عنه ــ حيث يقول : خرجت ذات ليلة لأبول ، فسمعت قعقعة تحت البول ، فإذ قطعة من جلد بعير يابسة ، فأخذتها وغسلتها ، ثم أحرقتها ورضختها بالماء ، فقويت بها ثلاثا[2].

فهذه المقاطعة كانت شديدة على الكبار والصغار ، ولكنها لم تحدث أثرها الذى يرجوه المشركون واستعمل المشركون فى التأثير المالى والاقتصادى أسلوبا آخر وهو المغالاة فى الأسعار على المؤمنين قال السهيلى : كانت الصحابة إذا قدمت عير فى مكة يأتى أحدهم السوق ليشترى شيئا من الطعام قوتا لعياله ، فيقوم أبو لهب فيقول : يامعشر التجار : غالوا على أصحاب محمد حتى لايدركوا معكم شيئا ، وقد علمتم مالى ووفاء ذمتى ، فأنا ضامن ، لاخسار عليكم ، فيزيدون عليهم فى السلعة قيمتها أضعافا مضاعفة !! وحتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع ، وليس فى يده شىء يطعمهم به ، ويغدو التجار على أبى لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس ، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعا وعريا .[3]

ولم يكتف المشركون فى هذه الفتنة المالية والاقتصادية بهذا ؛ بل

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام (١ / ٣٧١ / ٣٧٢) .

(٢) انظر : فقه السيرة للغزالى : ١٢٤ .

(٣) انظر : المرجع السابق : ١٢٤ .

صادروا واستولوا على ما يمكن الاستيلاء عليه من أموال المؤمنين . قال سعيد بن المسيب .

« لما أقبل صهيب مهاجرا نحو النبى — ﷺ — فاتبعه نفر من قريش ، نزل عن راحلته وانتشل ما فى كنانته ثم قال : يامعشر قريش لقد علمتم أنى من أرماكم رجلا ، وأيم الله لاتصلون إلى حتى أرمى بكل سهم معى فى كنانتى ، ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شيء إفعلوا ماشئتم ، وإن شئتم دللتكم على مالى وثيابى بمكة وخليتم سبيلى ، قالوا : نعم . فلما قدم على رسول الله — ﷺ — المدينة قال : ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع أبا يحيى ، قال فنزلت : ﴿ ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ﴾[1] .

ثانيا : محاولة التشويه لشخصية الرسول — ﷺ — :

وأراد المشركون فى هذه الصورة أن يحولوا بين من لايعرف الرسول وبين الإقبال عليه ، فهذا التشويه كان موجها للقادمين من خارج مكة وبذلوا فى ذلك جهدا كبير لمحاولة الوصول إلى صفة منكرة فلم يجدوا ، ولذلك قالوا كلاما لم يؤمنوا به أنفسهم .

لأنهم عرفوا شخصية النبى — ﷺ — لفترة زمنية طويلة ، أى أكثر من أربعين سنة .

ولذلك فإن ماقيل من ألفاظ لا يتطابق مع ماعرف عن محمد الذى لقب بالصادق الأمين ، ومحكم فى معضلات الأمور ، فكيف يكون كما

---

(١) البقرة : ٢٠٧ .

(٢) حلية الأولياء : ١ / ١٥١ ، ١٥٢ .

قالوا عنه : مجنونا ، أو ساحرا ، أو كذابا ، أو كاهنا ، أو شاعرا ؟ وقد ذكر القرآن الكريم أقوالهم هذه :
قال تعالى : ﴿ وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ﴾ [1] وقال تعالى : ﴿ وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب ﴾ [2].

وكان العاص بن وائل السهمى إذا ذكر رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال : « دعوه فإنما هو رجل أبتر لاعقب له ، ولو مات لانقطع ذكره واسترحتم منه »
ورد عليه : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ [3] وهذه الصفة الأخيرة دليل على إفلاسهم ، وعدم وقوفهم على صفة دميمة ، فقال العاص بهذا الذى لادخل لأحد فيه .

ومحاولة التشوية هذه كانت تعقد لها الجلسات ، ويدبر لها ، لمحاولة التأثير على القادمين ، فقد اجتمع الوليد بن المغيرة مع نفر من قريش وكان ذا سن فيهم ، وقد حضر الموسم ، فقال لهم : يامعشر قريش : إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأيا واحدا ، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً ، قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس : فقل وأقم لنا رأيا

---

(١) سورة الحجر : ٦ .
(٢) سورة (ص) : ٤ .
(٣) سورة الكوثر : ١ ـــ ٣ ﴿ إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر . إن شانئك هو الأبتر ﴾ .

نقل به ، قال : بل أنتم قولوا اسمع ، قالوا : نقول : كاهن ، قال : لا والله ماهو بكاهن ، لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ــ والزمزمة كلام خفى لايفهم ــ ولاسجعه ، قالوا : فنقول بمجنون . قال : ماهو بمجنون ، لقد رأينا المجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ــ الاختناق الذى يصيب المجنون ــ ولا تخالجه ــ التخالج اختلاج الأعضاء وتحركها من غير إردة ــ ولا وسوسة ، قالوا : فنقول : شاعر ، قال : ماهو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله : رجزه ، وهزجه ، وقريضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، قالوا : فنقول : ساحر قال : ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثهم ، ولا عقدهم ، قالوا : فما نقول ياأبا عبد شمس ؟ قال : والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لمغدق ــ الغدق : الكثير الشُّعَب والأطراف) ــ وفى نص آخر غدْق (والغدق : كثير الماء) ــ وإن فرعه لجناة ــ وإن : فيه ثمر يجنى ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا عرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا عنه هو ساحر جاء بقول هو سحر ، يفرق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته ، فتفرقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم ، لايمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا أمره ، فأنزل الله تعالى فى الوليد بن المغيرة : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالاً ممدودا ، وبنين شهودا ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقه صعودا ، إنه فكر وَقدَّر ، فقتل كَيْف قَدر . ثُم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر ﴾ (١)

---

(١) انظر : السيرة لابن هشام : ١ / ٢٨٣ ــ ٢٨٥ .

فواضح من هذا كيف كان صعبا أن يجدوا سبيلا إلى تشويه شخصية الرسول ـــ ﷺ ـــ أمام الناس ، فلجأوا إلى محاولة الطعن فيما جاء به فوصفه بأنه سحر يفرق به بين الناس ، وكأنهم يريدون بهذا أن يقولوا للناس إن الذى جعل الابن المؤمن يفارق أباه ، والزوج المؤمن يفارق أهله ، والأخ المؤمن يفارق أخاه لم يكن باقتناع هؤلاء المؤمنين بصحة ما يدعو إليه الرسول ، وإنما كان نتيجة لسحره ، ولذلك نتابع صورة أخرى من صور التحدى تتضمن هذا وهى .

ثالثا : محاولة التشكيك فيما يدعو إليه ﷺ :

وهذه الصورة من التحديات يراد بها الطعن فى مصون الدعوة ، واتخذت صورا منها :ـــ

أ ـــ القول ببشرية القرآن .

ب ـــ التماس التناقض .

جـ ـــ إحداث اللغو فيه .

أ ـــ فأما القول ببشرية القرآن :فقد نسب المشركون هذا القرآن إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وأنه من عنده ، وليس من عند الله ، ورد عليهم القرآن الكريم فى هذه الدعوى إن كانوا يزعمون بأن هذا القرآن من عند محمد ، فليأتوا بمثله ، أو فليأتوا بعشر سور من مثله ، أو فليأتوا بسورة من مثله ، وقرر القرآن عجزهم عن الإتيان بمثله لو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

وإذا كنا نقول : إن الأسلوب هو الرجل ، بمعنى أن أسلوب كل إنسان يدل على صاحبه ، فإن كلام الله ـــ سبحانه وتعالى ـــ يعلو فوق كلام

البشر ؛ لأنه كلام خالقهم سبحانه وتعالى ، فلذلك تضمن القرآن الكريم ـــ وجوها من الإعجاز ـــ سنتناولها ـــ إن شاء الله تفصيلا فى عنصر المواجهة ، لنرى كيف يكون اليقين فى أن هذا القرآن كلام رب العالمين .

كما رد واقع النبى ـــ ﷺ ـــ على زعم الكافرين أن هذا القرآن من عنده ، لأن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان أميا ، ولم يقرأ من قبله كتابا ، ولا خطه بيمينه ، فكيف يأتى بمثل هذا القرآن من عنده ؟

ولما وجدوا أن هذا الزعم غير مقبول ، لأن رسول الله منهم ويتكلم بلسانهم فلم يستطيعوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، نسبوا هذا الأمر إلى معلم وقالوا : « إنما يعلمه بشر » ، وكانت هذه الفرية مضحكة ؛ لأن هذا البشر الذى زعموه معلما كان أعجميا ، فكيف ؟ وهذا لسان عربى مبين .

وإن قال قائل : إن هذا البشر عَلِمَ المعانى ، فنقول : كيف يقوم بمثل هذا التعليم العظيم ثم لايدعيه لنفسه ؟ ولماذا قصر هذا التعليم على رسول الله ـــ ﷺ ـــ وحده ؟ ثم لو كان هذا من عند هذا المعلم النصرانى ، فكيف وقد جاء القرآن ليصحح أخطاء النصارى وانحرافاتهم ، وأخطاء اليهود وانحرافاتهم ، وجاء بما لايوجد لدى اليهود والنصارى من أخبار وتشريعات ؟

فالقول ببشرية القرآن مردود ولم يجد رواجا ولذلك سلكوا مسالك أُخرى لمحاولة الطعن منها .

ب ـــ التماس التناقض مضمون الدعوة :

وكان هذا نتيجة جهلهم حقائق ما يُدْعَوْ إليه ، وعدم إدراك الترابط فى

مضمون الدعوة. يتضح ذلك من الموقف الآتى :

« جلس رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد ، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم فى المجلس ، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش ، فتكلم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فعرضَ له النضر بن الحارث ، فكلمه رسول الله حتى أفحمه ، ثم تلى عليه وعليهم :
﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴾ (١) .

ثم قال رسول الله ـــ ﷺ ـــ ، وأقبل عبد الله بن الزبعرى السهمى ، حتى جلس ، فقال الوليد بن المغيرة له : والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب ـــ آنفا وماقعد ـــ وقد زعم محمد أنّا ومانعبد من آلهتنا هذه حصب جِهنم ، فقال عبد الله السهمى : أما والله لو وجدته لخصمته ، فسلوا محمدا أكل مايعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده ؟ فنحن نعبد الملائكة ، واليهود تعبد عزيرا ، والنصارى تعبد عيسى بن مريم ، فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى السهمى ، ورأوا أنه قد احتج وخاصم فذكر ذلك لرسول الله ـــ ﷺ ـــ من قول ابن الزبعرى ، فقال : ﷺ ـــ : كل من أحب أن يعبد من دون الله فهو مع من عبده ، إنهم إنما يعبدون الشياطين ومن أمرتهم بعبادته . فأنزل الله ـــ تعالى ـــ عليه : ﴿ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ، لايسمعون حسيسها . وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون ﴾ (٢) . أى عيسى بن مريم وعزير ، ومن عُبدوا من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله

---

(١) الأنبياء / ٩٨ .

(٢) الأنبياء / ١٠١ ـــ ١٠٢ .

سبحانه ، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الخلالة أربابا من دون الله عز وجل[1] فهذه من محاولاتهم فى إيجاد التناقض ، للتشكيك فى مضمون الدعوة ، ولما لم يفلحوا فى ذلك سلكوا سبيلا آخر هو :

جـ ــ **سبيل إحداث اللغو والتشويش** : على مايدعو إليه ــ ﷺ ــ وقد ذكر القرآن الكريم هذا الأسلوب فى قوله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ .

فكان النضر بن الحارث ــ الذى سبق ذكره ــ إذا جلس رسول الله ــ ﷺ ــ مجلسا فدعا فيه إلى الله تعالى ، وتلا فيه القرآن ، وحذر قريشا ما أصاب الأمم الخالية خالفه فى مجلسه إذا قام فحدثهم عن رستم السند يذ ، وقال أبو ذر : السنديذ بلغة فارس هو طلوع شمس ، وهم ينسبون إليه كل جميل .

وعن استنديار وملوك فارس ، ثم يقول : والله مامحمد بأحسم حديثا منى ، وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبتها فأنزل الله فيه :
﴿ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفورا رحيما ﴾ .
ونزل فيه : ﴿ إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين ﴾[4].
ونـزل فيـه : ﴿ ويـل لكـل أفـاك أثيم يسمـع آيـات الله تتلى عليـه ثم يصر

---

(١) الفرقان : ٥ ، ٦ .
(٢) القلم : ١٥ .
(٣) أنظر : السيرة لابن هشام ١ / ٣٨٢ ــ ٣٨٤ .
(٤) فصلت / ٢٦ .

مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾[1].

فهذه بعض محاولات الطعن فى مضمون الدعوة والتشكيك فيها لصرف الناس عنها ، ولكنها محاولات باءت كذلك بالفشل ، ولذلك لجأوا إلى أساليب أخرى وصور من التحدى ، منها :ـ

رابعا : المساومة والإغراء :

ولما فشلت المحاولات السابقة فى صرف المسلمين عن دينهم ، ومن وقف المد الإسلامى وتعويق سيره لجأ المشركون إلى أسلوب المساومة على المبادىء وإذا ساغ هذا لهم باعتبار أنهم ليسوا على مبدأ يقينى ؛ فإنه لايجد قبولا لدى رسول الله ـ ﷺ ـ ولدى أصحابه ، فقد رسخت عقيدة التوحيد فى قلوبهم ، فلا تقبل تحويرا ، ولاتبديلا ولا شركا . جاء فى كتب السيرة أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد المعزى والوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاص بن وائل السهمى وكانوا ذوى أسنان فى قومهم ، فقالوا : (يامحمد هلم فنلعبد ماتعبدون وتعبد مانعبد ، فنشرك نحن وأنت فى الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان مانعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه [2] وهذا العرض وتلك المساومة تدل على أنهم ليسوا على شيء ، وكان الجواب الذى لاجواب غيره رفض هذه المساومة . ويأتى فى ذلك قول الله تعالى لرسوله .

---

(١) الجاثية : ٧ ، ٨ وانظر : السيرة لابن هشام : ١ / ٣٨١ .

(٢) انظر : السيرة لابن هشام ٢ / ٣٨٨ .

﴿ قل يا أيها الكافرون لا أعبد ماتعبدون ولا أنتم عابدون مأأعبد .... الآيات ﴾[1]

ولما لم يجد المشركون قبولا واستجابة لهذه المساومة اجتمع وفد آخر برسول الله - ﷺ - ؛ ليساومه مساومة فيها إغراء بالمال والملك والجاه ، ظنا منهم أن رسول الله - ﷺ - يريد بهذا الأمر هذه المعانى التى يقدمونها ، فقالوا له : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك ، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثلما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسببت الآلهة ، وسفهت الأحلام ، وفرقت الجماعة .... إلخ فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيًا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمون التابع من الجن رئيا بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب لك حتى نبرئك منه ، فقال - ﷺ - : « مابى ما تقولون ، ماجئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل علىّ كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيرا ونذيرا فبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم ، فإن تقبلوا منى ماجئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوا على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم ، أو كما قال - ﷺ - : وفى هذا يقول عز وجل : ﴿ قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى على الله وهو على كل شىء شهيد ﴾[2].

---

(١) سورة الكافرون : ٢ .

(٢) سبأ : ٤٧ .

وبذلك لم تفلح محاولة المساومة والإغراء مع النبى — ﷺ — ، فكانت الصورة الآتية :

خامسا : السخرية من المؤمنين ومن المبادىء التى آمنوا بها :

وذلك لمحاولة التأثير عليهم فى حرب نفسية للانتقاص من شأنهم ، فكان المشركون إذا رأوا أصحاب النبى — ﷺ — يتغامزون بهم ويقولون :

قد جاءكم ملوك الأرض الذين سيغلبون غدا على ملك كسرى وقيصر ، ثم يصفرون ويصفقون[1]. فالسخرية — هنا — من المؤمنين وكذلك من مضمون الدعوة ، حيث يتهكمون على ما وعد به المؤمنون — فى ضعفهم هذا — من التمكين فى الأرض ، وفتح مُلك كسرى وقيصر ، ولذلك وصف الله — عز وجل — هؤلاء الساخرين بالإجرام ، فقال تعالى : ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون ﴾[2].

وهذا المسلك الساخر إنما يقوم على قصر نظر المشركين ، وعلى هوانهم واستبعادهم للوصول إلى ملك كسرى وقيصر ، لقوتهم وشدة منعتهم وكبر حجمهم فى نفوس المشركين .

ومن نماذج السخرية بالمبادىء كذلك ما كان من موقف العاص مع خباب فقد عمل خباب بن الأرت (وكان حدادا يعمل السيوف بمكة) للعاص عملا حتى كان له عليه مال ، فجعل يتقاضاها منه ، فقال العاص :

---

(١) انظر : فقه السيرة للغزالى : ١١٠ .

(٢) المطففين : ٢٩ — ٣٠ .

ياخباب : أليس يزعم محمد صاحبكم الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم ، قال خباب : بلى : قال : فأنظرنى إلى يوم القيامة ياخباب ، حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك حقك هناك ، فو الله لاتكون أنت وصاحبك ياخباب آثر عند الله منى ولا أعظم حظا فى ذلك ، فنزل فيه قوله تعالى : ﴿ أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا * أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا * كلا سنكتب مايقول ونمد له من العذاب مدا * ونرثه مايقول ويأتينا فردا ﴾[1] .

وهذا الأسلوب الساخر من علامات الإفلاس كذلك فى مواجهة المؤمنين .

سادسا : عداوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى :

ولقد ووجه رسول الله ـ ﷺ ـ والمؤمنون بعداوة شديدة من أهل الكتاب لاتقل عن عداوة المشركين ، على الرغم من أنهم وخاصة اليهود كانوا يستفتحون على الذين كفروا ويقولون لهم : لقد آن أوان مبعث النبى الذى سنقاتلكم معه قتل عاد وإرم . قال الله تعالى : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾[2] وقال جل شأنه : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ماعنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم ولايحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنة تسؤهم ، وإن

---

(١) انظر : السيرة النبوية فى القرآن ـــ عبد الصبور مرزوق : ٩٢ .

(٢) المائدة : ٨٢ .

تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ، إن الله بما يعملون محيط ﴾[1] .

فاليهود والذين أشركوا أشد عداوة لايقصرون فى إيقاع العنت بالمؤمنين ، وفى تناولهم على ألسنتهم بالسوء ، وفى حملهم لقلوب امتلأت بالكره والبغض للمؤمنين ، وفى غيظ يجعلهم يسرون بالمصيبة التى تقع بالمسلمين وبالإستيلاء إذا نال المسلمين حسنة .

يحكى ابن إسحاق عن السيدة صفية بنت حيي بن أخطب قالت : كنت أحب ولد أبي إليه ، وإلى عمى أبي ياسر ، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلا أخذاني دونه ، قالت : فلما قدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ المدينة ونزل قباء فى بنى عمرو بن عوف غدا عليه أبي حيي بن أخطب وعمى أبو ياسر ، فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس قالت : فأتيا كالّين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى . قالت : فهششت إليهما كما كنت أصنع ، فوالله ماالتفت إلى واحد منهما لما بهما من الغم ، قالت : وسمعت عمى يقول لأبي : أهو هو ؟ قال : نعم ، والله . قال : أتعرفه وتثبته ؟ قال : نعم قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته مابقيت[2] .

ولقد اتخذت هذه العداوة أساليب منها :

أ ـــ الأسئلة التى توجه للتلبيس والتعنت .

ب ـــ الحرب النفسية .

جـ ـــ الإيمان أول النهار والكفر آخره .

---

(١) آل عمران : ١١٨ .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام : ٢ / ١٦٥ .

د ــ مغالطات اليهود والنصارى وكذبهم .

هـ ــ محاولة التفريق بين المسلمين .

فمن تلبيسهم للحق بالباطل ما كان يفعله أحبارهم من توجيه الأسئلة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ، ليس لطلب العلم ؛ وإنما للتلبيس والتعنت ، ولكن القرآن الكريم كان ينزل فيهم وفيما يسألون عنه ليبين وجه الحق ، ويظهر الزيغ والتحريف الذى تعمدوه .ومن جحودهم للحق وتنكرهم للعهود والمواثيق التى أخذت عليهم نحو رسول الله ــ ﷺ ــ قال مالك بن الضيف ــ حين بعث رسول الله ــ ﷺ ــ وذكر لهم ما أخذ عليهم له من الميثاق ، وما عهد الله إليهم فيه ــ : والله ماعهد إلينا فى محمد عهد ، وما أخذ له علينا من ميثاق فأنزل الله فيه :

﴿ أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لايؤمنون ﴾ (١)

ومن مظاهر تعنتهم ما قاله رافع بن حريملة ووهب بن زيد لرسول الله ــ ﷺ ــ : يامحمد ائتنا بكتاب ونزله علينا من السماء نقرأه ، وفجر لنا أنهارا نتبعك ونصدقك ، فأنزل الله ــ تعالى ــ فى ذلك : ﴿ أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل ﴾ (٢)

فمن العجيب أن يطلب هؤلاء مثل هذه المطالب وهم ينتسبون إلى دين فقد عرفهم شيئا من أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله ، وعن صفات الرسل

---

(١) البقرة : ١٠٠ .

(٢) البقرة : ١٠٨ .

ومهمتهم وحدود قدرتهم ، ولكن لؤم اليهود وخسة طبعهم جعلتهم يتنكرون لكل هذا ، فيقول رافع بن حريملة كذلك لرسول الله ــ ﷺ ــ : يا محمد إن كنت رسولا من الله ــ كما تقول ــ فقل لله فليكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله تعالى فى ذلك : ﴿ وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية .كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ .(١)

ولم يكتف اليهود بأن يكون هذا الضلال خاصا بهم ؛ بل حاولوا إضلال غيرهم والتلبيس عليهم ، وكان حيى بن أخطب وأخوه أبو ياسر بن أخطب زعيمين فى هذا السبيل فكانا من أشد اليهود للعرب حَسَدَاً إذا خصهم الله تعالى برسول الله ــ ﷺ ــ وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام بما استطاعا ، فأنزل الله تعالى فيها :
﴿ ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً ، حسدا من عند أنفسهم ، من بعد ماتبين لهم الحق ، فاعفوا واصفحو حتى يأتى الله بأمره ، إن الله على كل شىء قدير ﴾ .(٢)

ولكى يصل اليهود إلى هذا الإضلال اتبعوا سبيل الخداع والالتواء مع المؤمنين ؛ لمحاولة التأثير عليهم نفسيا ، فقال عبد الله بن ضيف وعدى بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر عشية حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع ، يرجعون عن دينه . فأنزل الله ــ تعالى فيهم ــ ﴿ يأهل الكتاب لم

---

(١) البقرة : ١١٨ .

(٢) البقرة : ١٠٩ .

تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون ، وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون ۞ ولاتؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ۞ قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ۞ قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم ﴾ .(١)

ولم تقتصر الحرب النفسية على محاولة إضلال المؤمنين على هذا السبيل . بل اتُّبعَت أساليب أخرى منها :

التقليل من قيمة ما يحققه المسلمون من انتصار ، ومحاولة إظهار اليهود لأنفسهم بأنهم فى قوة لا يستطيع المسلمون مواجهتها ، فلما أصاب الله ـــ عز وجل قريشا يوم بدر جمع رسول الله ـــ ﷺ ـــ اليهود فى سوق بنى قينقاع حين قدم المدينة ، فقال : يامعشر اليهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب قريشا ، فقالوا له : يامحمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لايعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد ، قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار ﴾.(٢)

ففى هذا الموقف محاولة للتأثير النفسى من اليهود حتى لايفكر المسلمون فى مواجهتهم ، ولذلك حاولوا تغليف أنفسهم بهالة من القوة

---

(١) آل عمران : ٧١ ، ٧٣ .

(٢) آل عمران : ١٢ ، ١٣ .

المزعومة ، وفى الوقت نفسه بذلوا محاولاتهم فى التفريق بين المسلمين فى المدينة المنورة ، بعد أن ألف الله بين قلوبهم وجعلهم بنعمة الله إخوانا .

قال ابن إسحاق : مر شيخٌ من يهود عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ، مر على نفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — من الأوس والخزرج فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه مارأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البلاد — الملأ : جماعة الناس ويقال أشرافهم ، وقيلة أم الأنصار — لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتى شابا من يهود كان معه ، فقال اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم اذكر يوم بعاث ، وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ماكانوا تقاولوا فيه من الأشعار — وكان يوم بعاث يوما اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه يومئذ للأوس على الخزرج — ففعل فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة ، وغضب الفريقان جميعا ، وقالوا : قد فعلنا . موعدكم الظاهرة — الحرة — السلاحَ السلاحَ ، فخرجوا إليها ، فبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم .

فقال : يامعشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام ، وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بين قلوبكم ....

فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم ، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله —

ﷺ ــ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بين قيس[1].

فهذه وسيلة اتبعها اليهود بعد ما رأوا آثار الإسلام فى إيجاد المجتمع المسلم القوى المتماسك حيث غاظهم هذا ، ووجدوا أن هذه القوة تمثل خطرا عليهم وتزداد يوما بعد يوم .

ولقد اشترك النصارى مع اليهود فى المغالطات والكذب وتغيير ما أنزل إليهم من التوراة والإنجيل ، ورد القرآن الكريم عليهم هذه المغالطات ، فحين اجتمع أحبار اليهود ونصارى نجران عند رسول الله ﷺ تنازعوا ، فقالت الأحبار : ماكان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى من أهل نجران : ماكان إبراهيم إلا نصرانيا ، وهم بهذا الزعم يريدون كسب إبراهيم وإضافته إلى جانب من الجانبين ، وأنهم أولى الناس بالإنتماء إليه من هؤلاء المسلمين ، فأنزل الله ــ عز وجل فيهم : ﴿ ياأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وماأنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ماكان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن اولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين ﴾[2].

فهذه بعض صور العداء التى ظهرت من فريق اليهود والذى يعد أخطر من الفريق السابق وهو فريق المشركين ، لأنه كما رأينا يعتمد على الخلط

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢ / ١٨٣ ــ ١٨٥ .

(٢) آل عمران : آية ٦٥ ــ ٦٨ .

والتلبيس بما عندهم من علم سابق زيفوه وحرفوه .

وإذا قلنا بخطورة اليهود وشدة عدائهم وسعة مكرهم ، فإن هناك فريقا ثالثا لايقل عن ذلك خطورة وهو فريق المنافقين .

سابعا : النفـــاق :

وهذا الخط المتمثل فى النفاق والذى يعد صورة خطيرة من صور التحديات لم يظهر إلا بعد أن تكونت الدولة الإسلامية وظهرت قوتها ، وأصبح لها من الهيبة والخشية مايجعل ضعاف النفوس يظهرون الإسلام ، ويبطنون الكفر ، ويعملون فى الخفاء بمحاربة الإسلام والمسلمين .

وعندما نقول : إن هذه الصورة خطيرة ، فلأنها تقع فى داخل المجتمع المسلم ، ولأنها لا تظهر بوضوح فتواجه من المسلمين مواجهة علنية ، إنما تعرف بآثارها السيئة التى تنشأ عن التدبير والكيد الخفى ، مع استعمال مظاهر الإسلام للتستر وراءها ، فقد يظهرون بمظهر الصلاح والتقوى كأن يقيموا مسجدا يستترون وراءه ليكيدوا ويفرقوا بين المسلمين . قال الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾.[1]

ففريق المنافقين ــ كما رأينا ــ أشد خطرا على المجتمع المسلم من الفريقين السابقين ، فريق المشركين وفريق أهل الكتاب من اليهود

---

(١) سورة التوبة : آية ١٠٧ ، ١٠٨ .

والنصارى ، فعداوة الفريقين ظاهرة ويستطيع المسلمون مواجهتها ، أما فريق المنافقين فيشبه المرض الخبيث الذى يفتك بالجسم دون أن تظهر له أعراض تنبه المريض أو من حوله ، لاتخاذ ما يلزم من أساليب المواجه .

والمنافقون على عهد رسول الله ــ ﷺ ــ كانوا مجتهدين فى تثبيط الهمم والعزائم عند عظائم الأمور ، ولكنهم كشفوا وظهر أمرهم ، وعرف الله رسوله بسيماهم وبلحن قولهم ، بل أوقفه على أسمائهم ، ولكن بعد رسول الله ــ ﷺ ــ يظل الخطر منهم شديدا ؛ لعدم معرفتهم إلا بعد وقوع آثارهم ، فإنهم ينطقون بالشهادتين ، ولا تستطيع أن تعمل معهم شيئا مادامو كذلك ، ومادامو محسوبين فى عداد المسلمين ، ولكن إذا فعلوا فعلا يؤاخذون عليه وظهر ذلك الفعل ، فإنهم يعاقبون بالعقوبات الشرعية بعد أن تحدث الآثار ، من أجل هذا توعد الله المنافقين المخادعين للمسلمين بالعذاب الأليم ، حيث يكونون فى الدرك الأسفل من النار ، وأما فى الدنيا فإن الوقت لايطول فى هذا الخداع حتى ينكشف أمرهم ويظهر خداعهم .

وكان النفاق . على عهد رسول الله يقف عقبة فى طريق الدعوة وانتشارها ، فضلا عن تثبيط الهمم والعزائم . مر رسول الله ــ ﷺ ــ بعدو الله ابن أبى » وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله تعالى برسوله ــ ﷺ ــ وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام امتلأ قلبه حقداً وعداوة ، وأصر عليها ، ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكا ، فلما أن رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها مصرا على النفاق والحقد ، وحوله رجال من قومه وكان رسول الله ــ ﷺ ــ راكبا فتذمم ــ أى كره ــ أن يجاوزه حتى ينزل فنزل فسلم ، ثم جلس قليلا ، فتلى القرآن ، ودعا إلى الله عز وجل ، وذكر بالله ، وحذر ، وبشر ، وأنذر ،

وهو زام ــ أى ساكت لا يتكلم ــ حتى إذا فرغ رسول الله ــ ﷺ ــ من مقالته قال :

ياهذا ، إنه لا أحسن من حديثك هذا ، وإن كان حقا فاجلس فى بيتك ، فمن جاءك له فحدثه إياه ، ومن لم يأتك فلا تفته به ــ أى لاتكثر عليه به ولا تتردد عليه به ــ ولا تأته فى مجلسه بما يكره منه .[1]

فهذا موقف كبير المنافقين عبد الله بن أبى الذى يشمئز إذا ذكر الله وحده ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾.[2]

كما أنه لايطيق أن ينتشر الإسلام ويمتد ، بل يريد أن يحصره فى حدود بيت النبى ــ ﷺ ــ ، ولكن كان فى المجلس عبد الله بن رواحة فى رجال كانوا معه من المسلمين ، فقالوا لرسول الله ــ ﷺ : بلى فاغشنا به ، وائتنا به فى مجالسنا ودورنا وبيوتنا ، فهو والله مما نحب ومما أكرمنا الله به وهدانا له .[3]

ثامنا : القتال المسلح :

وهذه الصورة من صور التحديات القديمة التى تكاتفت فيها أيدى الأعداء من المشركين واليهود والمنافقين فى جيوش منظمة ، وجمعت العدد الكبير والعتاد الوفير الضخم لمحاولة الإجهاز على المسلمين ، حتى ينتهى أمر الإسلام ، بدءا بمعركة بدر وما تلاها من معارك خاضها المسلمون فى

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : ٢ / ٢١٨ ــ ٢١٩ .

(٢) سورة الزمر : آية ٤٥ .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام : ٢ / ٢١٨ / ٢١٩ .

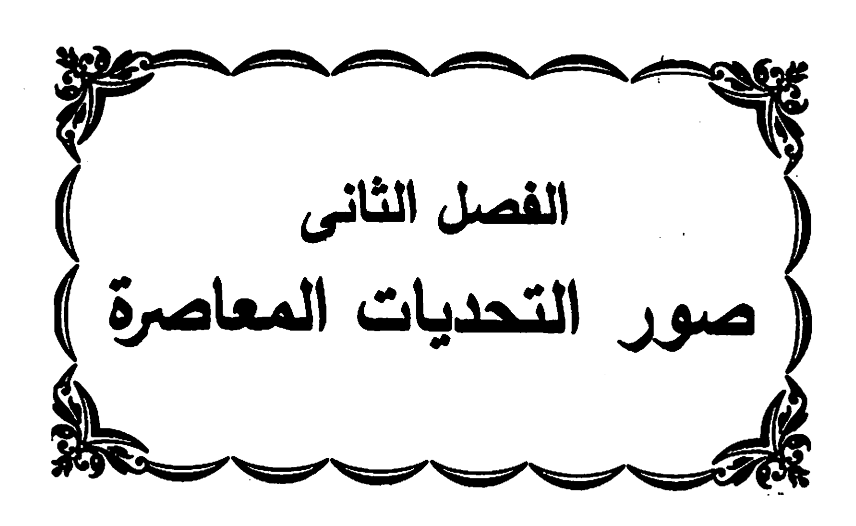
مواجهة هؤلاء ، وتأتى خطورة هذا التحدى من حاجته إلى إعداد العدة من الرجال والعتاد بما يتلائم مع حجم هؤلاء الأعداء مجتمعين ، وحجم قوتهم ، وهذا كان يتطلب من المسلمين جهدا بدنيا وماليا كبيرا ، فى وقت استنزفت فيه أموالهم ، وسلبت فى أكثرها من أعدائهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان معهم على الرغم من قلة عددهم وعدتهم ، وهذا سنتبينه فى حديثنا عن المواجهة .

تاسعا : القوى الخارجية :

وهذه تمثل الصورة الأخيرة من مجموعة هذه التحديات القديمة ، وتتمثل فى القوى الخارجية التى تحرشت بالمسلمين لما رأت دولتهم يشتدُّ ساعدها ، ويقوى ظهرها ، فأرادت أن تجهز عليها وجهزت لذلك الجيوش للانقضاض على الدولة الجديدة .

تمثلت هذه القوى فى العصر الأول فى دولتى فارس والروم ومن شايع الدولتين على حدود الجزيرة العربية .





الفصل الثانى

صور التحديات المعاصرة

صور التحديات المعاصرة

إن التحديات القديمة فى صورها السابقة لو واجهت جيلا لصدعته ، ولكن لم تجد الآثار التى أرادها أصحاب هذه التحديات سبيلها إلى الإسلام والمسلمين فى عصورهم الأولى ، وذلك يرجع إلى سببين :

السبب الأول :

قوة هذا الدين ، وصحته ، وسلامته من القصور والاختلاف ، وتلبيته لحاجات البشر مجتمعة ولمقتضيات الحياة لأنه وحى الله وشرعه .

السبب الثانى :

صدق المنتمين إليه ، واستجابتهم له ، وتذوقهم لحلاوته ، ويقينهم فى صحته وسلامته ، وتضحيتهم فى الدفاع عنه وتبليغه للعالمين .

ولو وجهت بعض هذه التحديات إلى مبدأ بشرى لنسفته نسفا ؛ لقوة التحديات وقوة أصحابها وشدة كيدهم وتعددهم ، ولو كان ذلك لفترة زمنية يسيرة ، فما بالك باستمرار هذه التحديات واشتداد صورها على مر التاريخ حتى العصر الحديث ضد الإسلام وأهله .

وقبل أن نعرض امتداد الصور القديمة ووجود مايشبهها فى الصورة ولكن يختلف عنها شدة وقوة وتنوعا ، نذكر مايلى :

أولا : ينبغى أن نفرق الآن بين مفهوم الإسلام فى مصدريه ، فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ ﷺ ـ وبين المنتمين إليه ، وذلك لوجود بعض الفصل بين مبادىء الإسلام وبين من ينتسب إلى الإسلام ، وكان هذا الفصل من الأسباب التى جعلت للتحديات المعاصرة أثرا كبيرا ، كما اتُّخِذَ حال كثير من المسلمين والمجتمعات المسلمة حجة للطعن فى الإسلام وفى مبادئه . من أجل هذا نؤكد على هذا الفصل بين المفاهيم وبين المنتسبين إليها ؛ حيث يحكم على الرجال بالمبادىء ، ولا يحكم بالرجال عليها . وانطلاقا من هذا نتعرف على وجود صور للتحديات فى عالمنا المعاصر ، وكيف يكون الربط بين هذه الصور المعاصرة والصور القديمة .

ثانيا : إن التحديات المعاصرة ـ على الرغم من تشابهها فى الشكل للتحديات القديمة ، تختلف عنها فى حجمها ، وفى تعدد أساليبها ، وفى عمق خداعها وتسترها ، وفى قوة الإمكانات المتاحة لها .

وفى ضوء هذا نعرض لصور التحديات المعاصرة :

أولا : الفتنة فى الأبدان والأموال :

فعندما ننظر فى هذه الصورة وفى غيرها من الصور ينبغى أن نتنبه إلى أمر آخر ، نرى أسلوب الخداع والتمويه وإحكام الاستخفاء من القوى المعادية ، حتى ليخيل للإنسان أنه لا وجود لهذه الصور ، أو أن هذه الصور ليست موجهة للإسلام والمسلمين ، وإنما توجه إلى الناس جميعا .

بالنظر إلى الفتنة البدنية نرى أنها تطورت وأخذت أشكالا جديدة وأساليب متعددة تلائم التقدم فى الاختراعات ، ونشاهد هذه الصورة على مستويين .

الأول : مستوى الدول غير المسلمة ، والتى توجد فيها أقليات مسلمة ، فإن هذه الأقليات تواجه من مظاهر الفتنة البدنية ما يمس أجسادهم تعذيبا فى السجون والمعتقلات ، ووصولا إلى حد الإبادة الفردية والجماعية ، تشاهد ذلك فيما يفعله الروس فى روسيا ، وفى الفلبين ، وفى غيرها .

المستوى الثاني : فى داخل المجتمعات المسلمة التى تحكم بنظم معادية للإسلام ، فإن المسلمين فيها يتعرضون كذلك للفتنة البدنية تعذيبا وتشريدا وقتلا فرديا وجماعيا ، وتأتى هذه الفتنة البدنية مغلفة من هذه النظم المعادية بغلاف خادع ، تلبيسا على الناس ، حتى تبرر هذه الفتن .

وأما الفتنة الاقتصادية فتأخذ كذلك أشكالا على المستويين ، فأما القوى المعادية للإسلام والمسلمين فيتبعون الأساليب الآتية والتى تمثل تحديا صارخا .

أ ــ الحرب الاقتصادية المتمثلة فى حرمان الشعوب المسلمة من حاجاتها من السلع الأساسية كالحبوب وغيرها ولو ألقيت فى البحر .

ب ــ محاولة الهيمنة على المواد الخام واستنزافها من الدول المسلمة ، سواء كانت معدنية أم زراعية ، بأسعار منخفضة ، وإعادتها إليها مرة أخرى فى صورة سلع صناعية بأثمان مرتفعة .

جـ ــ الظهور بمظهر الرفق الخادع فى تقديم قروض ضئيلة تتبعها فوائد باهظة ، لإرهاق كاهل الدول المسلمة ، ووقوعها فى دائرة التبعية لهذه الدول المقرضة ، والتى تملى عليها شروطها .

د ـــ محاربة أى مظهر من مظاهر الاكتفاء الذاتى ، وذلك عن طريق شراء العقول المفكرة ، والتى يتوقع منها تقديم نهضة اقتصادية لهذه الدول ، وذلك مانسميه بهجرة العقول أو التخلص منها ، ولو قتلا ، كما تكون المحاربة لأى مظهر من مظاهر التكامل الاقتصادى بين الدول الإسلامية لتحقيق هذا الاكتفاء ، ووصم كل تكتل بأغراض تخيف هذه الدول وتعوق طريق هذا التكامل .

هـ ـــ وتأتى المحاربة كذلك لأى عمل من شأنه أن يحقق تقدما ملحوظا فى المجال الاقتصادى ، وليس ببعيد مانشاهده فى موقفين متجاورين لمسألة واحدة وهى إقامة المفاعل النووى فى كل من باكستان والهند ، وكيف يعوق الأول ، وييسر السبيل للثانى ، وليس ببعيد عن أبصارنا ما حدث مع المفاعل النووى فى العراق .

و ـــ ومن أساليب الفتنة الاقتصادية المعاصرة : الضغوط المستمرة ، والمقاطعة ، والحرمان للنظام الذى يظهر منه صدق التوجه إلى تطبيق الإسلام ، كما حدث قريبا مع السودان وغيرها ، حيث تقاوم النظم الجادة بإيقاعها فى مشاكل اقتصادية تشغلها .

من هذه الأساليب نستطيع القول إن الصورة القديمة قد وجدت فى مجتمعنا المعاصر بصور أشد وأحدثت آثارا أقوى ، لاتخفف إلا بصدق المواجهة .

ثانيا : الاستشــراق :

ويعد الاستشراق من أخطر صور التحديات المعاصرة ؛ لما ينشأ عنه

من صور أخرى ، ونعنى بالاستشراق الدراسات التى قام بها فريق من الباحثين لدراسة مايتعلق بالشرق عموما ، وبالشرق الإسلامى بصفة خاصة ، من تراث وثقافة ، وكذلك ما يتصل بواقع المجتمعات المسلمة وأحوالها .

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الاستشراق بدأ قديما منذ لقاء المسلمين بالنصارى فى غزوة مؤته ، وكذلك فى غزوة تبوك ، حيث وقف المسلمون والنصارى موقف خصومة سياسية كما ذكر محمد حسين هيكل[1] « ولكن هذا فيه إغراق فى البعد الزمنى » .

وبعض الباحثين يجعل البداية فى الحروب الصليبية حين بدأ الاحتكاك السياسى والدينى بين الإسلام والنصرانية الغربية فى فلسطين ، والبعض الآخر يجعلها منذ الحروب الدموية التى نشبت بين المسلمين فى الأندلس ونصاراها ، وبعضهم يرى أنه بدأ بعد سقوط القسطنطينية سنة (٨٥٧ هـ) ، ومن ثم وصول العثمانين إلى أسوار فيينا ، فنشأ لحاجة الغرب للرد على الإسلام أولا ، ولمعرفة أسباب هذه القوة الدافعة لأبنائه ثانيا ، فإن الإسلام — فى نظرهم — وقف سورا مانعا من انتشار النصرانية .

ومن الباحثين من يرى أنه بدأ مع الاستعمار الأوربى لبعض البلدان العربية والإسلامية فى الشرق الأدنى وشمال إفريقيا وجنوب شرقى آسيا ، وحاجة هؤلاء إلى فهم عادات هذه الشعوب التى استعمروها وتقاليدها ؛ لتوطيد سلطانهم ، وتثبت سيطرتهم الاقتصادية عليها .[2]

---

(١) انظر : الاستشراق ، د . قاسم السامرائى : ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق .

وعلى كل حال : فهذه اجتهادات فى تحديد بداية هذه الصورة الخطيرة والمؤثرة على العالم الإسلامى ، ولا شك أنها تمتد بجذورها إلى الماضى . على أنه لانستطيع أن نضع أيدينا على كتابات استشراقية قديمة ، تعطى لنا ملامح هذه الصورة ، إلا بعد الاحتكاك الأول بين أوربا والعالم الإسلامى ، وبعد وقوف أوربا على النهضة الإسلامية فى شتى الميادين ، والوقوف على عوامل القوة فيهم فى موجة الحروب الصليبية التى انحسرت فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، أى فى أواخر القرن السابع الهجرى ؛[1] وذلك لتحطيم عامل القوة فى المسلمين وسهولة السيطرة عليهم ، لأن أعداء الإسلام أدركوا هذا قديما وحديثا ﴿ وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون .....الآية ﴾.[2]

ففى هذا إدراك من الكافرين لمدى تأثير القرآن على المسلمين ، فإذا أرادوا التغلب عليهم فلا سبيل إلى ذلك إلا بأن يحولوا بينهم وبين هذا القرآن ، فلا يسمعوا له ، أو أن يحدثوا لغوا مع مبادىء هذا القرآن ، حتى لا تؤثر فيهم .

ويصرح نابليون فى كتابه حملات مصر وسوريا بأثر الإسلام فى المسلمين ، فيقول : إن أهم العقبات أمام الاحتلال الفرنسى لمصر هى : أن أية قوة عسكرية فرنسية يجب أن تواجه حروبا ثلاثة ، أولها : ضد انجلترا ،

---

(١) انظر : الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام ـــ د . عبد الستار السعيد ص ٥٨ .
(٢) سورة فصلت : آية ٢٦ .

والثانية : ضد السلطان العثمانى ، والثالثة وهى أصعبها الحروب ضد الإسلام .[1]

والإشارة إلى وجهات نظر الباحثين فى تحديد بداية الاستشراق تفيد أن الاستشراق كان نتيجة لعوامل وأهداف سعى إليها خصوم الإسلام من المستعمرين ومن المنصرين ، حيث وجدنا للفاتيكان ـــ مثلا ـــ وما تبعه من كنائس فى أنحاء أوربا اهتماما بتعليم العربية لرهبان المنصرين ، وفرضت على الملوك والأمراء والبلديات تأسيس مدارس للغات الشرقية فى عواصم بلدانهم ، واستجابوا لذلك ؛ تحقيقا للهدف الذى يمكن أن نجعله متدرجا من دراسة استشراقية متخصصة ، تقدم زادا للمنصر ؛ ليقوم المنصر مع المستشرق بالتمهيد للمستعمر المسلح ، وصولا فى النهاية إلى الهيمنة الاقتصادية على دول الشرق والعالم الإسلامى .

ولذلك توزعت جهود المستشرقين على التخصصات الآتية فى العالم الإسلامى :ـــ

أ ـــ دراسة القرآن الكريم وعلومه .
ب ـــ دراسة الحديث الشريف وعلومه .
ج ـــ دراسة الفقه والأحكام الشرعية .
د ـــ دراسة السيرة والتاريخ .
هـ ـــ درسة اللغة العربية وآدابها .
و ـــ دراسة واقع المجتمعات المسلمة اجتماعيا ، واقتصاديا ، وسياسيا ،

---

(١) انظر : الاستشراق د . قاسم السامرائى : ص ٥٢ .

وكان لهذا التخصص دور فى وقوفهم الدقيق على فروع العلوم الإسلامية ، ومعرفة حالة المجتمعات المسلمة وإخراج هذه المعرفة فى صورة دراسات استشراقية ، وقف منها الباحثون موقفين :

الموقف الأول : موقف مَنْ أُعجِب إعجابا شديدا بهذه الآثار العلمية ، من تحقيق لكتب التراث ، وحسن إخراج لها ، وحسن تصنيف لمادتها ، فشغل لسانه وقلمه بالذم المطلق .

والفريق الآخر : نظر إلى الأغراض التى قام من أجلها الاستشراق ، وهى : خدمة التنصير ، وخدمة الاستعمار ، ومحاولة الهيمنة الاقتصادية ، وربط الأعمال بنواياها ، فشغل لسانه وقلمه بالذم المطلق .

والإطلاق فى الحالين فيه تجاوز ، فلا نستطيع أن ننكر جهود المستشرقين فى هذا الإخراج العلمى والميسر لكتب التراث ، وكذلك لانستطيع أن نتغاضى عن السلبيات المدمرة التى وجدت فى آثارهم ، ولهذا لايصلح المدح بإطلاق ، ولا الذم بإطلاق ، وإنما يكون حكمنا موضوعيا .

فبالنظر إلى المستشرقين وآثارهم نستطيع أن نصنفهم التصنيف الآتى :

١ ــ طائفة مهتدية ، درست علوم الإسلام دراسة دقيقة مستوعبة ، وفتحت قلبها ، وشرح الله صدرها للإسلام فأسلمت ، وكان من إنتاجها كتابات قيمة استفادت من القراءات الإسلامية . ومن أمثال هؤء الأستاذ محمد أسد ، ومن كتاباته التى أفاد منها كثير من العلماء المسلمين المعاصرين (الإسلام فى مفترق الطرق) ، وكتاب (الطريق إلى مكة) ، وكتاب (منهاج الحكم فى الإسلام) ، ومن هؤلاء كذلك المهتدية مريم جميلة التى أحسنت فى كتاباتها عن الإسلام ، ومنها كتاب الإسلام بين النظرية والتطبيق .

٢ ــ طائفة منصفة ، اكتفت بالوصف الموضوعى لحقائق الإسلام وما وجدته من المؤلفات فيه ، فلم تغير ولم تحرف ، ولكنها لم تفتح قلبها لتنتفع بما درست .

٣ ــ طائفة مغرضة وهى التى ظلت فى فلك التنصير والاستعمار ، وعرفت الحق ولكن حرفته وشوهته ، وهذه هى الطائفة الخبيثة التى تمثل التحدى ، الذى تنبثق منه صور أخرى من التحديات التى أثارتها . ومن هذه الصور :

أ ــ محاولة تشويه شخصية النبى ﷺ .
ب ــ الطعن فى مضمون الدعوة ، وذلك بإثارة دعوى بشرية القرآن .
جـ ــ الطعن فى السنة المطهرة .
د ــ إحداث اللغو بالتأثير على المسموعات والمرئيات .
هـ ــ استعمال قضايا المرأة استعمالا سيئا .
و ــ نقل تجربة العلمانية إلى المجتمعات الإسلامية .

ووصولا إلى هذه الأهداف استعملوا الأساليب الآتية :

أ ــ استعمال الروايات الموضوعة .
ب ــ الاعتماد على المصادر غير الأصيلة .
جـ ــ التأويل الفاسد للمواقف والنصوص .
د ــ معرفة الحقائق وعرضها معكوسة .

وساعد فى تخليطهم وتلبسهم جهلهم بأساليب اللغة العربية واستعمالاتها ، وهذه الطائفة تلون أبحاثها باللون المناسب ، وتغير من خططها بما يتلاءم مع المتغيرات ، فلا بأس أن تعرض لموضوع معين من

موضوعات الدراسات الإسلامية ، فتتناوله بالمدح والثناء ، ومن خلال هذا المدح تضع ماتشاء من السموم بعد أن أحدثت تخديرا للقارىء أو السامع بالثناء السابق ، وهذا ما جعل بعض المفكرين من أمثال مالك بن نبى رحمه الله ـــ يصنف المستشرقين فى إنتاجهم إلى صنفين مرفوضين :
(صنف مادح ، وصنف مفند) ويرى أن الصنف المادح والقادح يحدثان أثرا سلبيا فى المجتمعات المسلمة ، وذلك بتخطيط وتدبير مسبق .

فأما المادحون : فيوجهون مدحهم إلى التراث وإلى أمجاد الإسلام الماضية لصرف المسلمين عن حاضرهم ومستقبلهم ، إذا وجدوا منهم التفاتة جادة إلى حل مشاكلهم ، ويضرب لذلك مثلا بمؤتمر عقد فى فرنسا لمعالجة بعض مشاكل العمال الجزائريين ، وتنبه المخططون إلى هذا ، فوجهوا الدعوة إلى سيدة ألمانية مقربة لتتناول فى المؤتمر الذى سيبحث هذه المشاكل قضية مشرقة ، فيها مدح لأمجاد الماضى ، فعرضت لموضوع (شمس الله تشرق على الغرب) ؛ لكى تحول الأنظار بهذا المدح عن معالجة واقعها ومشاكلها ولتبقى دائما فى حالة التبعية .(١)

فالمادحون فى نظره لايختلفون عن القادحين للإسلام والمسلمين فى إحداث الأثر نفسه ؛ لأن مدحهم مبنى على خطة انطلقت فى أساسها لمحاربة الإسلام والمسلمين ، وإبعادهم عن المناخ الذى ينطلقون منه لتشييد حضارة جادة ، تجعلهم فى مقدمة القافلة البشرية .

---

(١) انظر : إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث لمالك بن نبى : ١٦ ، ١٧ .

وعلى كل حال فإن دراستنا ستكون مع هذه الطائفة الثالثة التى تمثل أخطر صور التحدى فى القضايا التى أثارتها ، ومنها : ـــ

محاولة تشويه شخصية النبى ﷺ .

وهذه الصورة تشبه محاولة المشركين ـــ قديما ـــ فى اختلاف صفات لا وجود لها فى شخصية النبى ﷺ ولاتتفق مع ماعرف عنه ﷺ معرفة يقينية .

فهذا مارجليوت وهو من أخبث المستشرقين وأشدهم بغضا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ يزعم أن محمدا كان يمارس الشعوذة ، وكانت له مجالس سرية أشبه بمحافل الماسونية [(١)] فمن أين استقى هذا المستشرق زعمه ؟

إن زعمه هذا من خيال حاقد خبيث اشتد ضغنه على الإسلام ورسوله ، ولم يكن هذا الضغن لدى فرد واحد ، بل شمل الفئة الثالثة من المستشرقين ، على اختلاف فى درجاته ، وفى أساليب التعبير عنه .

فهذا لامانس اليسوعى يختلق بدوره صفة أخرى ، تفضح أساليبهم ، وتكشف عن بغضهم الذى بدا من أفواههم وفى أقلامهم ، وماتخفى صدورهم أكبر .

فينسب إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الإكثار من الطعام والشراب والشره ، فهل هذا يتطابق مع ماعرف عن رسول الله ﷺ من الرويات

---

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان : (١ / ٣٥) .

الصحيحة الموثقة التى أكدت فى تضافر إيثار رسول الله ﷺ على نفسه ، وتقديمه الطعام والمال إلى الآخرين ، ولا يترك لنفسه ولا لبيته شيئا ، وهو يستطيع أن يكون ذا ثراء عريض — فهو إمام المسلمين وقدوتهم — ، ولكنه يعطى من نفسه القدوة للغنى كيف يعطى ويؤثر ؟ وللفقير كيف يصبر ويتعفف ويسعى ؟ إنه وسع المسلمين خلقا وفضلا .

فكيف يوصف بالشره وكثرة الطعام ؟ وأم المؤمنين عائشة — رضى الله عنها — تصف الحال مع الطعام فتقول : كان يأتى علينا الشهر ما نوقد فيه نارا ، إنما هو التمر والماء ، إلا أن يؤتى باللحيم .[1]

وفى رواية قالت : « ماشبع آل محمد من خبز البر ثلاثا حتى مضى لسبيله » ، وفى أخرى قالت « ماشبع آل مُحمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليل تباعا حتى قبض » .

وفى أخرى : ماشبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ .

وفى أخرى قالت : ما أكل آل محمد أكلتين فى يوم واحد ، إلا وإحداهما تمر ، وفى أخرى كانت تقول لعروة : والله ياابن أختى إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال — ثلاثة أهلة فى شهرين — وما أوقد فى أبيات رسول الله ﷺ نار .

قال : قلت ياخالة : فما كان يعيشكم ؟ قالت الأسودان : التمر والماء إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار وكانت لهم منائح[2] فكانوا

---

(١) أخرجه البخارى ومسلم والترمذى . انظر : جامع الأصول : (٤ / ٦٨٢) .

(٢) المنائح : جمع منيحة ، وهى الناقة يعيرها صاحبها إنسانا ليشرب لبنها ويعيدها .

يرسلون إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ من ألبانها فيسقينا .

فهذه روايات البخارى ومسلم ، ولمسلم أيضا قالت : لقد مات رسول الله ﷺ ـــ وما شبع من خبز وزيت فى يوم واحد مرتين[1] فهل يصح أن يوصف رسول الله ـــ مع هذه الروايات ومع تلك الشهادة ـــ بكلام لا مانس ؟

إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ كان يوصى بالاعتدال فى الطعام والشراب لأن المعدة بيت الداء ، وكان لايحرم على نفسه الطيبات ، ولكنه يؤثر غيره على نفسه ، ولم يرضَ أن يحيى حياة الترف والتخمة ، فكيف يوصف بعكس ما كان عليه ؟ لقد خير زوجاته ـــ رضى الله عنهن ـــ لما طلبن التوسعة بين الرضى بالعيش معه على هذه الحالة أو أن يسرحن سراحا جميلا . فاخترن ـــ جميعا ـــ الله ورسوله والدار الآخرة : ﴿ ياأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا * وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ﴾[2] فهل يوصف من كان على ذلك بأنه يتبع شهوات ، سواء كانت فى الطعام أو غيره ـــ كما زعم لامانس وغيره ؟

إن هؤلاء لم يفهموا كيف يكون الخلق فى أعلى درجاته فى نظام الإسلام الذى تأتى مرتبة رسول الله ﷺ منه الأولى ، ولكى يدرك هؤلاء كيف كان رسول الله ﷺ يجوع ليشبع غيره ؟ وكيف كان يشغله الجائع ، والمحتاج حتى يقضى حاجته ، أعرض هذا النص الطويل الذى يحكيه الصحابى الجليل أبو هريرة رضى الله عنه ، فيقول فى قسم : والله الذى لا إله

(١) انظر : جامع الأصول :(٤ / ٦٨٣)
(٢) الأحزاب : ٢٨ / ٢٩ .

إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع ، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع ، ولقد قعدت يوما على طريقهم الذى يخرجون منه ، فمر أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله ؟ ماسألته إلا ليستتبعنى ، فمرَّ فلم يفعل ، ثم مر عمر ، فسألته عن آية من كتاب الله ؟ ما سألته إلا ليستتبعنى ، فمر فلم يفعل ، ثم مر بى أبو القاسم ﷺ ، فتبسم حين رآنى وعرف ما فى وجهى ، وما فى نفسى ، ثم قال : ياأبا هر ، قلت لبيك يارسول الله ، قال : الحق ، ومضى ، فاتبعته ، فدخل ، فاستأذن ، فأذن لى ، فدخل فوجد لبنا فى قدح ، فقال : من أين هذا اللبن ؟ قالوا : أهداه لك فلان ، أو فلانة ، قال أبا هر : قلت : لبيك يارسول الله ، قال : الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى — قال وأهل الصفة أضياف الإسلام ، لايأوون إلى أهل ولا مال ولا إلى أحد ، إذا أتته صدقة بعث بها إليهم ، ولم يتناول منها شيئاً ، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منهم ، وأشركهم فيها ، فساءنى ذلك ، وقلت : وما هذا اللبن فى أهل الصفة ، كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها ، فإذا جاؤوا أمرنى ، فكنت أنا أعطيهم وماعسى أن يبلغنى من هذا اللبن ؟ ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسوله بد ، فأتيتهم فدعوتهم ، فأقبلوا واستأذنوا فأذن لهم ، وأخذوا مجالسهم من البيت ، فقال : ياأبا هر ، قلت لبيك يارسول الله ، قال : خذ فأعطهم ، قال : فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ، ثم يرد على القدح ، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى ، ثم يرد على القدح ، فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى ، ثم يرد على القدح ، حتى انتهيت إلى النبى — ﷺ — وقد روى القوم كلهم ، فأخذ القدح ، فوضعه على يده ، فنظر إلىّ ، فتبسم ، يا أبا هر ، قلت : لبيك يارسول الله ، قال : بقيت أنا وأنت قلت : صدقت يارسول الله ، قال : فاقعد فاشرب ، فقعدت فشربت ، فقال : اشرب ، فشربت ، فما زال يقول :

اشرب ، حتى قلت : لا والذى بعثك بالحق ما أجد له مسلكا قال : فأرنى فأعطيته القدح ، فحمد الله وسمى وشرب الفضلة .(١)

فهذا حال رسول الله — ﷺ — يأتيه الشيء إن كان صدقة فهى لفقراء المسلمين ولا يأخذ منها شيئا لنفسه ولا لأهل بيته ، وإن كانت هدية فكر فى المسلمين أولا ، وأرسل إلى فقرائهم ، وأشركهم فيها ، وتكون هذه المعجزة فى بركة القليل من اللبن ، ليكفى أهل الصفة ، ويكون هذا المشهد الدال على خلقه — ﷺ — فى شرب الفضله فكيف يوصف بالشره والإكثار من الطعام والشراب — كما صنع لامانس — وهو الذى علم الاعتدال فى الأمر كله

ويسرى هذا فى الصفات المختلفة كلها ، والتى حاولوا بها التشويه لشخصية النبى — ﷺ — اكتفيت بالرد على هذه الصفة ، ويطول البحث إذا تتبعنا كل هذا ، فنعالجه إن شاء الله فى مواضع أخرى .

وحسبنا أن نقف من بيان هذا — هنا — على الهوى والغرض الخبيث لدى المستشرقين فى محاولات التشويه ، ويصرح بذلك دينه فيذكر : إن الأب لا مانس اليسوعى صاح متأوها أول كتابه عن محمد من كون القرآن جاء وصرف العرب عن حلاوة الإنجيل التى كانوا بدأوا يذوقونها ، ولم يقدر أن يغفر للقرآن ذنب إدخاله فى الإسلام ثلاثمائة مليون نسمة بمرأى ومسمع من المبشرين المسيحيين ؛ فلذلك عزم لامانس أن يشنها على الإسلام غارة شعواء ، ويحمل عليه حملة صليبية يكون هو بطرسها الناسك على أمل أن

---

(١) أخرجه البخارى . وانظر جامع الأصول : ١١ / ٣٧٠ — ٣٦١ .

يصرع الإسلام[1] ويعلق دينه على هذا الموقف بقوله : إلا أن حالة عقلية كهذه لاتتلاءم مع بحث علمي مبني على تجرد محض من الهوى وتنزه عن البغض كما يذكر إميل درمنجهم .

إنه لما نشبت الحروب مدة قرون متطاولة بين المسلمين والمسيحين ازداد بينهم سوء التفاهم ، واشتدت البغضاء كثيرا ، ومما يجب أن نعترف به أن أكثر البغضاء كان من جهة المسيحين ، فقد كان البيزنطيون يحتقرون الإسلام بلا تأمل ولا بحث ، كما يذكر أنهم لم يحملوا أنفسهم على درس عقيدة الإسلام ؛ وإنما حملوا عليه بالطعن والقذف بلا فحص ، وأخذوا يصورون محمد بصور غريبة جداً ، ويشوهون من هذه الصورة ما أمكنهم . يقول الأمير شكيب أرسلان وذكر هنا المطاعن التي كانوا يوجهونها إلى النبي — ﷺ — مما أبينا نقله نظرا لسخفه وسفاهته وسقوطه من نفسه ، حتى أن درمنجهم نفسه هزأ كثيرا بهذه المطاعن ، على الرغم من كونه مسيحيا معتقدا .

ويتابع درمنجهم قوله : فالتناقض الذي بين الملتين كانت قواعده الأساسية أخبارا واهية لا أساس لها من الصحة ، مثل أن محمدا كان صنما من ذهب ، وأن مساجد المسلمين هي هياكل ملأى بالتماثيل .... إلى أن يقول : ثم إن قصصا يسمى قصص محمد ورد فيه مايفيد أن الإسلام يجيز اشتراك جملة رجال في زوجة واحدة .[2]

---

(١) انظر : حاضر العالم الإسلامي : ١ / ٣٦ .

(٢) انظر : حاضر العالم الإسلامي : ١ / ٨٤ .

ولم يكتف المستشرقون بمحاولة التشويه لشخصية النبى ـ ﷺ ـ بل امتد ذلك إلى أئمة المسلمين من بعده .

الطعن فى مضمون الدعوة :

ولما كانت محاولة التشويه لشخصية النبى ـ ﷺ ـ فاشلة ، وخاصة فى المجتمعات المسلمة ؛ لسذاجة المطاعن وبعدها عن حقيقة الرسول الكريم ، سلك المستشرقون سبيل الطعن وإثارة الشبهات حول مضمون الدعوة ، مستغلين جهالة الكثير من المسلمين بحقائق دينهم ، فكان هذا الطعن موجها إلى العالم الإسلامى عن طريق تلاميذ المستشرقين من المستغربين ، وموجها كذلك للعالم الأوربى وغيره ، لتضليله وتنفيره من التفكير فى شأن الإسلام .

وبدأت هذه المطاعن بالقرآن الكريم أساس الإسلام وأصله الأول ، ثم بالأساس الثانى للإسلام ، والمتمثل فى السنة النبوية المطهرة ، وتشمل كذلك الأحكام الفقهية المستمدة من الكتاب والسنة ، وسيرة النبى ـ ﷺ ـ ، والتاريخ الإسلامى ، واللغة العربية وآدابها ، ولم تنس هذه الدراسات واقع المجتمعات المعاصرة واتخاذه أداة قوية للطعن فى الإسلام .

أ ـ فأما مطاعنهم وشبهاتهم حول القرآن الكريم ، فهى إمتداد لكلام المشركين السابق فى دعوى بشرية القرآن الكريم ، والتى رد عليها ردا مقنعا يبطل هذه الدعوى ، كما كان إعجاز القرآن الكريم البيانى والموضوعى والعلمى لسانا ناطقا بأن هذا كلام الله وليس من كلام أحد من خلقه ، إلا أن المستشرقين أخذوا هذه الدعوى ، وألبسوها ثوباً جديداً ، أرادوا منها تجريد القرآن من كونه كلام الله ، ونسبته إلى محمد ؛ باعتبار ذلك خطوة أولى فى

سبيل المطاعن ، واعتبار التوراة والإنجيل مصدرا للقرآن الكريم ، وأن الرسول أخذ ذلك بطريق المخالطة .

وغاب عن المستشرقين أن الفترة المكية لم يتحقق فيها هذا الاختلاط المزعوم ، فما المصدر إذن ؟ فضلا عن تأكيد القرآن الكريم فى هذه الفترة المكية على جوانب العقيدة ، وتصحيح أخطاء اليهود والنصارى فى العقيدة والأخبار السابقة ، ثم إن اليهود أخفوا أشياء ، وحرفوا فى أشياء ، وحذفوا أشياء ، وبين الله لرسوله كل هذا ، فكيف يكون اليهود والنصارى بتحريفهم وتزييفهم مصدرا للقرآن الكريم .
ثم إنه لم يؤثر على أحد من قدامى اليهود والنصارى والذين عاصروا نزول الوحى ما يفيد بدعوى . الأخذ عنهم .

وقد أضاف بعض الباحثين الغربيين إضافة جديدة تبطل هذا الزعم وتظهر المخازى التى وقع فيها اليهود والنصارى بتحريفهم للتوراة والإنجيل ، ويثبت فى القوت نفسه أن هذا القرآن كلام الله وحده ، فقام بعرض الحقائق العلمية التى انتهت إليها البشرية فى عالمنا المعاصر على التوراة التى فى أيدى اليهود بعد تحريفها والإنجيل بعد تحريفه والقرآن الكريم ، واستنتج من هذا العرض التوافق التام بين حقائق القرآن الكريم والحقائق العلمية ، والاختلاف بين هذه الحقائق وما جاء فى التوراة والإنجيل المحرفين .(١)

ولو كان مافى التوراة والإنجيل من هذه المعلومات وحيا من عند الله لاستحال التناقض ، ولكن هذا الاختلاف كان نتيجة التغيير والتبديل والإضافة

---

(١) من نماذج هذه الدراسة ماكتبه الأستاذ « موريس بوكاى » على مافيه من مآخذ .

البشرية التى تجعلنا نقول : إن مابين أيديهم لايمثل وحيا ؛ بل يمثل فكرا بشريا ، قد يمثل فترة زمنية ، ولكنه يتغير ويتبدل ، ومن هنا يكون الاختلاف والتعارض ، وأما القرآن الكريم فكما قال فيه الله تعالى : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ (١).

ولقد اشتمل القرآن الكريم فى وجه إعجازه العلمى على كثير من الإشارات العلمية التى تنطق بأن هذا كلام الله وحده ولا دخل فيه لأحد من خلقه ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ (٢).

ومن هذه الإشارات : ماجاء فى قوله تعالى فى تشبيه عمل الكافرين بالظلمات الشديدة : ﴿ ..... أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موجٌ من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور ﴾ (٣) فالتعبير القرآنى الكريم عن الظلمات ــ هنا تعبير يلفت النظر إلى شدة الظلمة الناشئة من بحر عميق جداً ، فوقه موجة مرتفعة جدا ، ارتفاع الجبل الكبير ، فوقها موجة أخرى مرتفعة تصل إلى مستوى السحاب ، فتتكون هذه الظلمة التى لايقترب الإنسان من رؤية يده إذا أخرجها فى مثل هذا الوسط . وقف أستاذ فى علوم البحار أمام هذه الصورة ، وسأل سؤالا قال فيه هل ركب محمد بن عبد الله البحر ؟ قيل له : لا . قال : إن هذه الصورة لايستطيع تصويرها إلا من ركب أعماق

---

(١) النساء : ٨٢ .

(٢) الحاقة : ٤٤ ــ ٤٧ .

(٣) النور : ٤٠ .

المحيطات ، فأنى لمن لم يركب البحر أن يصور مثل هذه الصورة .

أشهد أن هذا الكلام ليس كلام محمد كما يزعم الزاعمون ، وإنما هو كلام الله الخالق ــ سبحانه ــ وكانت الآية الكريمة مفتاح إسلام هذا الرجل .

وفى آية كريمة أخرى يقول الله ــ تعالى فيها : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ۞ ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لَحْمًا ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ [1]. فهذه الأطوار من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى عظام إلى كسوة العظام باللحم لم يقف على حقيقتها العلماء إلا فى العصر الحديث بعد الاكتشافات العلمية الطبية ، فمن الذى علم محمدا هذا ؟

إنه كلام الله وليس لرسول الله ــ ﷺ ــ فيه إلا التبليغ عن ربه سبحانه ، وآية كريمة أخرى تصف حالة من يرد الله أن يضله ، فيقول جل شأنه ﴿ ومن يرد أنْ يُضله يَجعل صَدره ضيقا حَرجا كأنما يصعد فى السماء ﴾ [2].

فالصورة التى يدركها الإنسان وقت نزول القرآن الكريم أن الإنسان إذا ارتقى مكانا مرتفعا انشرح صدره لطيب الهواء واعتدال الجو ، فكيف إذا صعد فى السماء يضيق صدره ويختنق .

إن الإنسان لم يعرف إلا حديثا أن الأكسجين يقل كلما ارتفعنا فى

---

(١) المؤمنون : ١٢ ــ ١٤ .

(٢) الأنعام : ١٢٥ .

طبقات الجو العليا ، فكلما ارتفع ضاق صدره واختنق إن لم يزود بالأكسجين اللازم ، فمن الذى علم رسول الله ذلك ؟ إنه كلام الله وليس كلام محمد .

وفى آية كريمة أخرى يحكى القرآن الكريم ما يحدث للمعذبين فى النار يوم القيامة ، فيقول الله تعالى : ﴿ كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب ﴾[1] فلماذا عبر بالجلد هنا فى موضع الإحساس ، وأنه ينضج الجلد ثم يبدل بجلد آخر ، ليتجدد الحس بالعذاب ؟
فلماذا تم الربط بين الحس والجلد ، ولم يعرف ذلك إلا حديثا ؟

وفى آية كريمة أخرى يذكر لنا القرآن الكريم آية من آيات الله الدالة على كمال قدرته فى سياق الحديث عن البعث : ﴿ بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾[2]
فالعودة بعد الموت يقينية لاشك فيها ، والله قادر على أن يعيد الإنسان بحالته التى لايتشابه فيها مع غيره فى بنانه وبصماته ، فالبصمة دالة على شخصية الفرد ؛ لأنها لاتتشابه مع غيره ، فمن الذى علم محمداً هذا ، ولم يعرف إلا حديثا ؟

وهكذا يطول بنا الحديث إذا عرضنا لهذه الإشارات المبثوثة فى كتاب الله تعالى ـــ والتى تنطق بقوة لتقول : ﴿ ذلك الكتاب لاريب فيه ﴾[3]

---

(١) النساء : ٥٦ .
(٢) القيامة : ٤ .
(٣) البقرة : ٢ .

﴿ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ، إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾[1] هذا فضلاً عن الإعجاز الموضوعى ، والذى يتضمن نظماً متكاملة للمجتمعات البشرية سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وخلقية ، وفى وقت كان العالم يسير فيه على أعراف وعادات بسيطة ساذجة .

وكذلك الإعجاز البيانى الذى يقدره أهل اللسان العربى الفصيح ، ومن درس هذا اللسان وتذوقه ، وعلى الرغم من قوة الأدلة ووضوحها ، فإن بعض المستشرقين قد نسب القرآن إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنه أخذه عن اليهود والنصارى ، فيقول جولد تسيهر « فى كتابه عقيدة الإسلام وشريعته » « إن دعوة النبى العربى كان فيها نخبة مبادىء دينية اعتقدها هو بالاختلاط باليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ورآها جديرة بإحياء الشعور الدينى بين قومه ، ولقد كانت هذه المبادىء المقتبسة من الأديان الأخرى فى نظره ضرورية لتثبيت سير الإنسان بحسب الإرادة الإلهية ، فتلقاها هو بصدق وأمانة وبمقتضى إلهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية ، وجاءه وحيا إليها كان هو مقتنعا بكونه وحيا إليها نازلا على لسانه » .

ولقد عجبت من قول الأمير شكيب أرسلان تعليقا على قول « جولد تسيهر » « إن الإسلام فيه نخبة مبادىء أصلهما من اليهودية والمسيحية فليس فيه شيء يدعو إلى الإنكار ، وما جاء القرآن إلا مصدقا لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، والإسلام إنما هو ملة إبراهيم حنيفا ، وقد جاء محمد بتأييد تلك الملة ، لا بنقضها كما لايخفى » ولعل هذا الكلام من الأمير شكيب جاء تأويلا لكلام لايحتمل هذا التأويل نتيجة إعجابه بهذا المستشرق

(١) الزمر : ١ ، ٢ .

وبكتابه ، حيث يقول في وصفه : « إنه سيد المدققين ، وحجة المستشرقين » ويصف كتابه بأنه جليل ، ونسي الأمير شكيب أن كثيرا من المستشرقين اليوم مايزالون يرددون أن الإسلام بقرآنه وحديثه ، بل وحضارته ، مستمد من اليهودية والنصرانية ، فالدعوة هنا لانراها تختلف كثيرا عن الصورة القديمة التى قال بها المشركون .

ب ـ **الطعن في السنة** : ولم يقتصر الطعن من المستشرقين على القرآن وحده ، بل امتد كلامهم إلى السنة ليشككوا فيها ، وفي صحتها ، وفي نسبتها إلى الرسول ـ ﷺ ـ ، ويذكروا أنها من اختلاق الرواة من بعده ، ثم سلكوا مسلكا أخبث في تناول شخصيات الرواة بالتشويه والتجريح ، حتى إذا سقطت شخصياتهم سقطت بالتالي مروياتهم . و لايخفى ما في هذه الصورة من محاولة الهدم للمصدر الثانى من مصادر الإسلام ، الذى شهد جهودا علمية كبيرة من علماء الحديث في توثيق السنة سندا ومتنا)[(١)] .

جـ **ومن مجالات التشويه كذلك** : الأحكام الفقهية، حيث حاول بعضهم فى أول الأمر أن ينسب التشريع الإسلامى والأحكام الفقهية إلى مصادر رومانية ، ولكن لم تجد هذه الدعوى رواجا ، إذ وقف لها علماء القانون الغربيون أنفسهم ، لإبراز التناقض الذى بين القانون الرومانى وما جاء به الإسلام ، ليقرروا فى مؤتمر دولى بأن الشريعة الإسلامية مستقلة وليست مستمدة ـ كما يزعم البعض ـ من القانون الرومانى ، ولذلك كانت المحاولات الأخرى لتشويه الأحكام الشرعية : أن توصف بالقسوة أحيانا ،

---

(١) انظر : معمر بن راشد الصنعانى ، مصادره ومنهجه وأثره فى رواية الحديث د . محمد رأفت سعيد : ٦ .

وبعدم صلاحية التطبيق أحيانا ، وذلك لصرف المجتمعات الإسلامية عن العمل بها ، وإحلال القوانين الوضعية محلها .

د ــ **ومن المجالات كذلك** : النظر فى السيرة والتاريخ الإسلامى ؛ لتجريده من الأمجاد ، وتصوير مواقفه تصويرا لا يتلائم مع حقيقة الأحداث وحقيقة الأشخاص ، معتمدين فى ذلك على الروايات الموضوعة ، والتأويل الفاسد ، وحجب الإيجابيات ، ليبقى السجل التاريخى مشوها . وقد نجد من بعضهم مدحا لبعض الفترات فى الماضى ؛ ولكن هذا يستعمل كحقنة تخدير فى مناسبات بعينها ، حين يرى المخططون المستعمرون أن اتجاهاتهم جادة تريد للإسلام نهضة ، فيصرفون هذه الاتجاهات إلى المدح للأمجاد الماضية فحسب ، لينصرفوا عن التفكير الجاد فى مشاكل الحاضر والمستقبل . على أن تصوير المستشرقين للتاريخ الإسلامى يبرزه مشوها فى صورة صراعات متلاحقة ، تفسر بتفسيرات خاطئة يجرد التاريخ من الإيجابيات ولا يرى فيه إلا السلبيات .

هـ ــ **ومن أساليبهم للطعن فى اللغة العربية وآدابها** : النظر إليها باعتبارها قاصرة عن استيعاب مبتكرات العصر ، وإلى أنها صعبة فى نحوها وصرفها وإعرابها ، ولذلك يقومون بتشجيع الانصراف عنها إلى اللهجات العامية التى يتكلم بها كل إقليم من أقاليم المجتمعات الإسلامية على حدة ، ليتحقق لهم بذلك أمران هما :

١ ــ هجر اللغة العربية الفصحى حتى تنقطع صلة الناس بها ، وبالتالى لا يستطيعون قراءة القرآن الكريم أو السنة المطهرة أو ما كتب حولها بلغة عربية فصيحة ، لتصير الفصحى كاللغة اللاتينية عندهم ، لغة تحفظ فى متحف ولا تستعمل .

٢ ــ إن تشجيع العامية وإهمال الفصحى سيؤدى إلى القطيعة بين هذه الأقاليم ؛ حيث يتعذر التفاهم فيما بينهم بسبب اللهجات المتعددة والمختلفة ، واستعمل المستشرقون لترويج هذا الأمر دور التعليم فى المجتمعات المسلمة ووسائل الإعلام فيها ، فوضعت المناهج الدراسية وانبرى الكتاب من المستغربين تلامذة المستشرقين إلى تشجيع العامية ، والاستهزاء والسخرية من الفصحى ، وصياغة الأعمال الأدبية من تمثيلية أو فيلم أو مقالة أو غير ذلك من الصور الأدبية صياغة عامية .

تصوير واقع المجتمعات المسلمة تصويرا مشوها :

ومن صور الطعن التي ضرب على أوتارها المستشرقون تصوير واقع المجتمعات المسلمة تصويراً يبرزها فى حالة من المهانة والتخلف ، حتى يشمئز العالم الآخر من هذه المجتمعات ، وفى الوقت نفسه يرجعون هذا التخلف إلى الإسلام الذى ينتمى إليه هؤلاء المسلمون ؛ فيكون الطعن فى مثل هذه الصورة طعنا غير مباشر ، حيث يقولون للمشاهد وللقارىء : لو كان الإسلام صالحا لأصلح من هؤلاء ، وحاولوا ترسيخ هذا المعنى فى الأذهان بتصوير السلبيات فى المجتمعات المسلمة ، وحجب أى مظهر إيجابى يشعر بصلاحية هؤلاء أو استعدادهم الحضارى على الأقل ، بل وجعل الإغراء إلى حد تسخير مجموعة من أبناء العالم الإسلامى للقيام بمهمة فصل الحياة عن الدين ، حتى يتقدم المجتمع ، ولذلك وجدنا محاولة نقل مايسمى بالعلمانية إلى المجتمعات المسلمة .

أ ــ العلمانية :

وهى التجربة التى عاشتها أوربا بانفصال الحياة عن الكنيسة لتصبح

الحياة لادينية ، وإذا كان للأوربيين مايبرر لهم الفصل بين الكنيسة والحياة ، لما قامت به الكنيسة من تعويق لكل عمل تقدمي ولكل نهضة علمية ، وذلك بسبب تسلط القائمين على شئون الكنيسة على عقول الناس بالخرافة ، وعلى أموالهم بالاحتيال فى أخذها ، وتسلطت على العلماء بالتحريق والإعدام والتعذيب إذا خالفوا ماتعتقده الكنيسة ، والكنيسة كانت تعتقد أوهاما ، وتعتقد فكرا بشريا أعطته صِفة القداسة ، فليست الكنيسة إذا ممثلة للدين المنزل على نبى الله عيسى ــ عليه السلام ــ وإنما تمثل تحريف البشر لهذا الدين ، وإفساده لعلاقة الإنسان بالله ، فتمنح صكوك الغفران لمن تشاء ، وتبيع الجنة لمن تشاء ، وأفسدت حياة الناس العلمية ، مما جعل الناس فى أوربا يرحبون بالانفصال عن هذا الوباء الذى حمل زورا اسم الدين ، وبهذا الانفصال تخلصت أوربا من سيطرة الكنيسة بالصورة التى سبق ذكرها ، واستفاد علماؤها من تراث المسلمين عن طريق الأندلس والاحتكاك بالمسلمين فى الشرق الإسلامى ، وضاعفوا الجهود ، وتقدموا حتى وصلوا إلى مستوى كبير ملحوظ من التقدم المادى الذى يبهر كثيرا من العقول ، ولكنه تقدم بقدم واحدة ، لأنه لايشبع فى الإنسان إلا جانبه المادى ، والإنسان ليس كذلك ، بل فيه جانبه الروحى الذى يحتاج إلى إشباع ، وهذا لايتحقق للإنسان إلا فى وحى الله وشرعه ، والذى يشبع فى الإنسان عقله وقلبه وبدنه ، أى يشبع الجانب المادى والروحى ، وهذا قد جعله ميسرا للعالمين فى الإسلام ، فهل نقل تجربة العلمانية بالصورة التى أشرنا إليها سابقا فى أوربا إلى العالم الإسلامى يعد نقلاً صحيحا وسبيلا إلى تقدم هذه المجتمعات المسلمة .

إن هذا الزعم الذى يقول بأن أوربا فصلت الحياة عن الدين فتقدمت ،

وعلينا ــ إذا أردنا التقدم ــ أن نفصل الدين عن الحياة زعم باطل ، وذلك لأن مسمى الدين عندنا ليس كمسمى الدين عندهم ، فإن الدين عندنا هو الإسلام المحفوظ فى كتاب الله تعالى وفى سنة رسوله ــ ﷺ ــ ، وهو الذى بث الحياة فى الأمة ، وهو الذى حركها إلى التقدم وإلى النظر والبحث فى آيات الله فى الأنفس والآفاق ، وليس فى الإسلام مايسمى (برجل الدين) ، وإنما فيه الفقهاء والعلماء والمجتهدون الذين يصيبون ويخطئون ، والحجة لمن معه الدليل ، ومعنى كل هذا أن الإسلام هو العامل الوحيد للتقدم ، فكيف يفصل عن حياة الناس ؟ أما التخلف الملاحظ والمشاهد فى العالم الإسلامى فإنما يعود إلى أسباب أخرى،ترجع فى معظمها إلى ضعف الأخذ بالإسلام ، والانغماس فى الشهوات والتبعية للأمم الأخرى التى غزتها عسكريا ، وأثرت فيها فكرياً فالعلمانية إذاً : تجربة ارتبطت بالبيئة الأوربية ، وكانت انطلاقة للفرار من فساد الكنيسة والتقدم المادى ، ولكن ليست تجربة متكاملة أو مصالحة لأوربا نفسها ، فهى ــ كما أشرنا ــ لم تحقق الإشباع الكامل للإنسان ، ولذلك تظهر آثارها السلبية ــ الآن ــ فى هذه المجتمعات المتقدمة ماديا ؛ حيث أصبحت الحضارة ، أو المدنية المادية تمثل حبلاً خانقا فى أعناق هؤلاء . يفسر لنا ذلك العدد الكبير من المصحات النفسية ، والفراغ الهائل فى النفس الأوربية ، الذى يؤدى بها إلى الانتحار والتخلص من الحياة ، كما تظهر آثارها السلبية فى هذا الجشع ، ومحاولة العلو فى الأرض بالإفساد ، والتصرفات التى لاتليق بالإنسان ، وإنما تليق بعالم الغابات ، حيث الحروب التى تدور حول المطامع البشرية ، والتسابق فى ترهيب البشر ، وتخويفهم وتهديدهم بالحروب المتتابعة التى تلقى فيها الألوف بل الملايين من البشر حتفها ، لا فرق فى ذلك بين الرجال والنساء والأطفال ، فكيف يصح فى منطق العقل السليم أن تُنقل مثل هذه

التجربة السيئة إلى العالم الإسلامى ؟ إن المستشرقين وتلامذتهم حريصون كل الحرص على هذا ، ويبذلون فى سبيله من أساليب الدهاء مايزين الباطل أمام من يجهل معالم الحق ، وهذه من صور التحديات الخطيرة المعاصرة .

فإذا كان مفهوم العلمانية فى الغرب (اللادينية) ؛ فإن محاولة نقلها من تلامذة الاستشراق يمثل تحديا أخطر ، وهو محاربة الدين ، وإذا كانت العلمانية فى الغرب تعنى فصل الحياة عن الدين ؛ فإنها تعنى لدى تلامذة الاستشراق محاربة الدين .

وبمعنى آخر : إذا كان التدين فى أوربا يطلق كتصرف شخصى كالثياب فتلبس ماتشاء ، وتتدين كما تشاء ، فإنها فى الشرق أخذت قمع الدين ، وهذه صورة خطيرة من صور التحديات المعاصرة .

ب ـــ ومن أساليب الإفساد الاستشراقى فى داخل المجتمعات المسلمة كذلك : استغلال قضايا المرأة ؛ وصولا إلى الإفساد الاجتماعى ، وتحطيم نظام الأسرة الذى يتميز به المجتمع الإسلامى فى علاقة قوية ، تقوم على المودة والرحمة ، والقيام بالواجبات والحقوق بين الرجل وزوجته ، والأبناء والآباء والأمهات ، واستغلوا فى ذلك جهالة الكثير من النساء بحقائق دينهم ، وسوء المعاملة من بعض الرجال والنساء .

ومن هذه القضايا قضية السفور ومخاطرها ، والاختلاط وآثاره ، ومزاحمة المرأة للرجال فى أعمال خارج البيت لاتتلاءم معها ، وامتهانها بصورة لاتتلاءم مع حيائها وكرامتها ، وقضية تعدد الزوجات ، والطلاق ، وغير ذلك من القضايا التى أسست على الجهل بحقائق الإسلام ، وعدم امتثال توجيهاته فى الحياة الاجتماعية .

جـ ـ المستغربون (الطبقة البديلة) :

وهى الفئة التى تنتمى إلى المجتمعات المسلمة ، وتحمل أسماء مسلمة ، ولكنها صيغت فى فكرها صياغة غربية على يد أساتذتهم من المستشرقين ؛ لكى يكونوا فى المهمة التى عجز عن تحقيقها والاستمرار فيها المستشرقون ، لانكشاف أمرهم ، وظهور وجههم فى المجتمعات المسلمة . وتمت صياغة هذه الفئة عن طريقين :ـ

الأول : المدارس الأجنبية التى افتتحت فى المجتمعات المسلمة ؛ لتدرس تحت برنامج خاص لصياغة هؤلاء .

الثانى : البعثات الخارجية ، وإن كان هذا الطريق أقوى من الطريق السابق ؛ لأن البيئة الخارجية تساعد فى هذه الصياغة مساعدة ملحوظة ، وبعد أن تتم هذه الصياغة تبقى رعاية مخططى الاستشراق بهؤلاء فى اختيار الأماكن المؤثرة فى المجتمعات المسلمة ، بعد أن تسلط عليهم الأضواء . وأخطر هذه الأماكن دور التعليم ووسائل الإعلام .

د ـ ومن الأساليب التى يتبعها المستشرقون وتلامذتهم فى التأثير على المجتمعات المسلمة :ـ إحداث اللغو والتشويش ، بالتأثير على المسموعات والمرئيات ، مستعملين فى ذلك خطة محكمة يقوم بها هذا الفريق المتعدد فى تخصصاته ، مستخدما وسائل الإعلام من مذياع وتلفاز وسينما ومسرح وصحف ومجلات وكتب .

ومن صور التحديات المعاصرة :

الحرب النفسية المصحوبة بالإرهاب والسخرية والتحذير ؛ لإحداث

الهزيمة النفسية ، وذلك بتصوير الأعداء بصورة كبرى ، وتضخيم ذلك ، والتأكيد المستمر والمتتابع على تخلف العالم الإسلامى ، وإدراجه تحت مسمى العالم الثالث ؛ ليبقى الكبير كبيرا والصغير صغيرا ، دون أن يطمع الصغير فى التقدم ومزاحمة الدولتين اللتين توصفان بالعظميين ، ويتم هذا التأثير النفسى باستعمال وسائل الإعلام السابقة بإمكاناتها المتنوعة .

ثالثا : أهل الكتاب :

أ ــ ويتمثل عداؤهم المعاصر فى الصهيونية ، وخطرها المادى والمعنوى ، حيث تحاول السيطرة المادية العالمية ؛ لاستعمال الاقتصاد فى التأثير على سياسة الدول ، وكذلك التأثير المعنوى فى إغراق العالم بالشهوات ، وتحللهم من القيم الخلقية والمبادىء التى تحفظ للإنسان كرامته وشخصيته . يتضح ذلك جليا فى مخططاتهم وكتاباتهم ، وتستطيع أن تقرأ ذلك فى التلمود وبروتوكولات « حكماء صهيون وغيرها » .
كما يكمن الخطر الصهيونى فى المحافل الماسونية ونواديها ، التى ترفع شعارات تخدع كثيرا من الناس ، لتمارس فى الخفاء أهداف الصهيونية الماكرة .

من هذه الشعارات (الحرية والإخاء والمساواة) ، وذلك الأسلوب المخادع تابع للكيد اليهودى المدمر فى عالمنا المعاصر الذى يستهدف تفريق جسد الأمة بعد القضاء على دولة الخلافة ففى بروتوكولات صهيون . قد فتنا بعضهم ببعض بالأمور الشخصية والشئون القومية لكل منهم ، وسيظل هذا الانهيار فى طريقه ، حتى يستنزف قوى الإنسانية وتلهيها الانقسامات ، وتفشوا المكايدات والحسد ، كما تفشو المجاعات .[1]

(١) انظر : شبهات التغريب : ٢٤ .

ومن مصادر الخطر المنتسب إلى أهل الكتاب (الصليبية الحاقدة) ، التى تنكرت للمعاملة الكريمة فى المجتمعات المسلمة ، وصارت تكيد للمسلمين كيدا مُدمرا ، ظهر فى الحروب الحاقدة التى شنتها على العالم الإسلامى ، ولم تتوقف عند ذلك ، بل استعملت أسلوب التنصير الذى استهدف الإسلام والمسلمين .

وهذا التنصير بدأ مع الدراسات الاستشراقية بداية مبكرة ومتضافرة مع الدراسات الاستشراقية لمحاولة تشكيك المسلمين فى دينهم ، نظرا لأن المنصرين يدركون أن مالديهم من عقائد منحرفة ، ومبادىء عبثت فيها الأفكار البشرية ، لاتغرى مسلما يتمتع بصفاء وصحة فى عقيدته وفى مبادئه وتصوراته ، ولذلك اتبع المنصرون أسلوب التضليل ، ومحاولة التشويه لشخصية النبى ، ومحاولة تشويه مبادىء الإسلام ، ولما فشلوا فى تحويل المسلم إلى النصرانية اكتفوا فى خدمتهم للمستعمر بأن يسهموا فى تحلل المسلم من مبادئه فحسب ؛ ليكون بلا شخصية ؛ وليسهل قياده ، وتسهل السيطرة الاستعمارية عليه .

وهذا التنصير تشرف عليه الكنائس العالمية الحاقدة وأساتذة الاستشراق ، ويعقدون لذلك المؤتمرات المتتابعة ، لدراسة ما تم ، ووضع الإمكانات المادية الكبيرة تحت تصرف هؤلاء المنصرين ، وتقدم للدول المستعمرة كل مساعداتها من أجل ذلك .

رابعا : النفاق المعاصر :

وتظهر خطورته فى آثاره السلبية السيئة داخل المجتمعات المسلمة ، مما يعين أعداءها فى الخارج على تحقيق مخططاتهم ويظهر النفاق المعاصر

فى الأعمال الآتية :

أ ــ تعويق العودة الصحيحة إلى الإسلام بتكامله داخل المجتمعات المسلمة .
ب ــ الخداع والظهور بغير حقيقته ، ورفع الشعارات التى توهم أنه مناصر للإسلام ، وهو يخطط لهدمه .
جـ ــ إماتة روح الجهاد فى الأمة ، حتى تكون مهيئة لأبسط الضربات من عدوها ، ومتقبلة لغزوه بلا مقاومة .

خامسا : القتال المدمر :

ويأتى نتيجة لتضافر جهود أعداء الإسلام فى الداخل والخارج ، وبصورة يستعمل فيها أفتك الأسلحة وأكثرها تطوراً ، لمحاولة الإجهاز على العالم الإسلامى ، واقتطاع ما يمكن من أجزائه ، ويتمثل التحدى فى هذه الصورة فى إرهاق المجتمعات المسلمة للحاق بالتسابق المجهد فى التسليح المناسب لقوى الأعداء المادية ، وما يتطلبه ذلك من جهد مالى ونفسى .

سادسا : القوى الخارجية شرقية كانت أم غربية :

وتدرس كل صغيرة وكبيرة ، وتخطط لاستمرار السيطرة على العالم الإسلامى ، وهذه القوى قد تكون مختلفة فيما بينها ، ولكنها تتداعى وتنسق الجهود فيما بينها عندما تكون المواجهة للإسلام وأهله ، وهذا ما حذر منه رسول الله ــ ﷺ ــ فى قوله الكريم « يوشك الأمم أن تتداعى عليكم كما تداعى الأكلة الى قصعتها فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة

منكم : وليقذفن فى قلوبكم الوهن ، قيل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال حب الدنيا وكراهية الموت » .[1]

ومن أساليب تخطيط هذه القوى للتأثير على المجتمعات المسلمة تبنى محبى الزعامة فى إنشاء فرق ضالة تؤثر تأثيراً سلبيا على هذه المجتمعات .

ولخطورة هذه الفرق نتناول نماذج منها ؛ لنقف على مظاهر التخطيط المعادى للإسلام فى هذه الفرق ، وكيف اتخذت هذه القوى المعاصرة من معرفتها لتاريخ هذه الفرق الضالة وجذورها سبيلا إلى الوقوف بجانبها ومساندتها . ونقدم فيما يلى تعريفا بجذور هذه الفرق ، وبداية تكوينها ، والتعرف على حقيقة هذا التكوين ، وبيان الحركة الأم فى ذلك وهى الباطنية ، والأساليب التى اتبعتها فى نشر باطلها .



(١) أخرجه أبو داود . انظر جامع الأصول : (١٠ / ٢٨) .



الفصل الثالث

ظهور الفرق الضالة

ظهور الفرق الضالة
تبنى محبى الزعامة فى إنشاء الفرق الضالة

ظهور الفرق :

لقد بدأ المجتمع الإسلامى بداية قوية ، حيث تجتمع كلمة المسلمين على أمر الله ورسوله فى صورة لم يعرف لها مثيل على مر التاريخ ، حيث يلتف المسلمون حول رسول الله ـ ﷺ ـ يسمعون أمره ، ويستجيبون له فى اقتداء كامل ، يشمل جوانب حياتهم . وظهرت آثار هذه الاستجابة فى تراحم أفراد المجتمع فيما بينهم ، وفى قوته وشدته على أعدائه : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ﴾ .

على أن اجتماع الكلمة لايعنى أنه لم يوجد اختلاف فى وجهات النظر إلى بعض المسائل الجُزئية ، بل إن اختلاف الرأى وتعدد وجهات النظر فى بعض الأمور يدل على خصوبة الفكر ، وعلى الحركة الذهنية النشطة التى حركها الإسلام فى عقول أتباعه ، ولذلك أقر الرسول ـ ﷺ ـ مثل هذا النظر المتعدد فى المسألة[٢] ، وتعود المسلمون على ذلك ، ولكن فى مجال الأمور الجامعة يخرجون من هذا التعدد إلى رأى موحد تسير عليه الأمة ، وخاصة إن ذُكِّروا بنص غاب عنهم ، أو بعمل من أعمال الرسول ـ ﷺ ـ رآه بعضهم ، ومثال ذلك كثير فى حياة النبى ـ ﷺ ـ ، واستمروا على

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) انظر : معمر بن راشد الصنعانى : مصادره ومنهجه وأثره فى رواية الحديث د . محمد رأفت سعيد : ١٨٥ ..

ذلك بعد أن لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى .[1]

وعلى الرغم من ذلك نقرر أن هذا لم يمنح من وجود جماعة من المنافقين لم يسيروا على هذا المنهج ، بل كان شأنهم أن يبطنوا الكفر ، وأن يُظهروا مايرضى المسلمين ، وكانت هذه النزعة نتيجة شعور منهم بقوة المجتمع المسلم فى ذلك الحين .

نماذج من وجهات النظر المتعددة وكيف يتم الاتفاق

١ ــ عندما مات رسول الله ــ ﷺ ــ وقع الاختلاف فى موته ، وكان ذلك لكبر المصيبة عليهم ، ولحبهم الشديد لرسول الله ــ ﷺ ــ ، فلم يتصور بعضهم أنه مات ووقف عمر وقفته المشهورة ؛ ليهدد من قال بموته ، وكان الاتفاق عندما ذكرهم أبو بكر ــ رضى الله عنه ــ بما قاله الله تعالى فى ذلك ، حيث وقف فيهم خطيبا فقال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لايموت ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين﴾[2] ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون﴾ .[3]

٢ ــ وحدث اختلاف فى موضع دفن النبى ــ ﷺ ــ ، فرأى بعضهم أن يدفن فى مكة ففيها مولده ، وفيها البيت العتيق ، وفيها عاش ،

---

(١) انظر : الفرق بين الفرق : ١٤ ــ ٢٢ .
(٢) آل عمران : ١٤٤ .
(٣) الزمر : ٣٠ .

وفيها بعث ، ورأى بعضهم : أن يدفن فى المدينة ، فإليها هاجر ، وفيها استقر ، وفيها تكون المجتمع ، ورأى بعضهم أن يدفن فى بيت المقدس ، بجوار قبر جده إبراهيم ـــ عليه السلام ـــ واتفقوا عندما ذكر لهم أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ نصاً نبويا كريما فى ذلك حيث يقول فيه النبى ـــ ﷺ : ـــ إن الأنبياء يدفنون حيث يقبضون . فدفن ـــ ﷺ ـــ فى حجرته بالمدينة .

٣ ـــ واختلفوا فى الإمامة من بعده ، فرأى الأنصار أنهم أحق بها ، ليس وصولا إلى سلطة ، لأنهم هم الذين آووا ونصروا ، وهم الذين قدموا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ وللمهاجرين ما شهد به لهم القرآن الكريم ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ،[1] وفى مدينتهم تأسست الدولة الإسلامية ، ورأى المهاجرون كذلك أنهم أحق بالإمامة ، فهم الذين آمنوا برسول الله فى أول الدعوة ، وتحملوا فى الله فى أنفسهم وأموالهم ، ورسول الله ـــ ﷺ ـــ منهم ، وهم الذين تدين لهم العرب ، ولذلك يرون أنفسهم أنهم أحق بهذا الأمر .

ودار حوار فى سقيفة بنى ساعدة على أحسن ماتكون الطرق فى الحوار ، فكل حاضر يريد أن يدلى برأيه يقول به ومعه دليله ، ويناقش الرأى الآخر ويبين وجهة النظر فيه ؛ لكى يصلوا فى نهاية الأمر إلى اتفاق ، وإلى بيعة الصديق أبو بكر ـــ رضى الله عنه ـــ بالخلافة ، فلم يكن رائدهم الهوى والعرض المفرق .

---

(١) الحشر : ٩ .

٤ — ولقد وجد اختلاف فى الرأى — أيضا — فى قتال مانعى الزكاة ، فمنهم من يرى ألا يقاتلوا ، ويبقى الجيش الإسلامى ليؤدى مهمته فى الذود عن المدينة ، ومنهم من يرى قتالهم ، وكان على هؤلاء أبو بكر — رضى الله عنه — إذ قدم حجته ألا فرق بين الصلاة والزكاة ، وقال كلمته المشهورة .

« لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله — ﷺ — لقاتلتهم عليه »
واتفق الناس على رأى أبى بكر فى وجوب قتالهم .

٥ — واتفقت كلمتهم كذلك على قتال مدعى النبوة مسيلمة والمرتدين .

٦ — كما اتفقت كلمتهم على قتال الروم والعجم .

٧ — واتفقت كلمتهم على الفتوح .

ولم يمنع هذا الاتفاق (الذى كان من ثمراته قوة المجتمع المسلم ، وفتح البلدان ، ونشر الإسلام فيها ، ودخول الناس فى نوره بصورة عمت بقاعا كثيرة) من وجود الآثار السلبية للنفاق وأهله ، وكان من هذه الآثار الناتجة من تحالف المنافقين مع أعداء الإسلام أن ظهرت الفتن التى بدأت بمقتل عثمان — رضى الله عنه — ، وقد قتل قبله عمر بن الخطاب بيد المجوسى الحاقد ، وظل النفاق والعداء للإسلام يعمل عمله فى توسيع الخلاف وبث الفرقة فى صفوف المسلمين ، فوجد الاختلاف فى شأن على — رضى الله عنه — بعد أن تولى الخلافة بعد مقتل عثمان — رضى الله عنه — .

وظهرت فكرة التشيع كطريق يستتر فيه المغرضون ؛ لتفتيت هذه الوحدة ، كما ظهر فى مقابل هذه الفكرة فكرة الخروج ، وما يتبعها من أفكار لايراد منها — أيضا — إلا تصديع هذا المجتمع المسلم الذى كان

متفقا .

واستمرت الأفكار التى تزيد من الفرقة تعمل عملها ، وتتكون لها فرق يصير لها سمات تميزها عن غيرها ، ويدور الصراع بين هذه الفرق ، والذى يصلى نار هذه الفرقة هو المجتمع المسلم الذى كان مؤتلفا .

وأخطر هذه الفرق التى خرجت عن الإسلام خروجا ظاهرا فرقة الروافض ، التى أظهرت بدعتها منذ زمن على ــ رضى الله عنه ــ ، فقال بعضهم لعلى : أنت الإله ، فأحرق على قوما منهم ، ونفى ابن سبأ إلى المدائن ، ومثل هذا القول لعلى لا يجعلنا نضع هذه الفرقة فى عداد الفرق الإسلامية التى لها اجتهاداتها ؛ وإنما هى فرقة خارجة تحمل لتحطيم الإسلام والإجهاز عليه ، وكان من آثار هذه الفرقة ظهور دعوة الباطنية فى أيام المأمون على يد حمدان قرمط وعبد الله بن ميمون القداح .[1]

الباطنيـــة :

فالباطنية ليست من فرق الإسلام ؛ بل هى من الفرق الضالة التى لم ير منها إلا الشر ، ويقول أحد المؤرخين للفرق والمبينين للفرق بينها وهو : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى الاسفرائينى التميمى المتوفى عام ٤٢٩ هـ فى ذكر الباطنية وبيان خروجهم عن جميع فرق الإسلام : اعلموا أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم ؛ بل أعظم من ضرر الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم ، بل أعظم من ضرر الدجال الذى يظهر آخر الزمان .[2]

(١) انظر الفرق بين الفرق : ١٤ ــ ٢٢ .

(٢) انظر : المصدر السابق : ٨٢ .

ويقول أيضا : وذكر أصحاب التواريخ أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس ، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم ، ولم يجسروا على إظهاره ؛ خوفا من سيوف المسلمين ، فوضعوا أسسا من قبلها منهم صار الباطن إلى تفضيل أرباب المجوس ، وتأولوا آيات القرآن الكريم وسنة النبي ــ عليه الصلاة والسلام ــ وعلى موافقة أسسهم .(١)

ولقد سلكوا مسلك الاحتيال في تأويل الأصول ، ولم يكتفوا بذلك ، وإنما تجاوزوا هذا إلى فروع الشريعة لطمس معالمها والإجهاز عليها .

ويقول عبد القاهر أيضا : ثم إن الباطنية لما تأولت أصول الدين على الشرك عمدوا ــ أيضا ــ لتأويل أحكام الشريعة إلى وجوه تؤدى إلى رفع الشريعة ، أو إلى مثل أحكام المجوس ، الذى يدل على أن هذا مرادهم بتأويل الشريعة أنهم قد أباحوا لأتباعهم نكاح البنات والأخوات ، وأباحوا شرب الخمر وجميع الملذات .(٢)

فغرض الباطنية في ذلك واضح غاية الوضوح في محاولة الإجهاز على الإسلام ، ولكن اختلف المتكلمون في بيان أغراضهم بعد القضاء على الإسلام كما يريدون ، فهل يدعون إلى دين آخر محل الإسلام أم أنهم يكتفون بكونهم قد فرغوا نفوس المدعوين من الإسلام ؟

لقد ذهب أكثر المتكلمين إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوسية بالتأويلات التى يتأولون عليها القرآن الكريم والسنة المطهرة . واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم ميمون بن ديصان كان مجوسيا من سبى

(١) انظر : المصدر السابق : ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(٢) انظر : المصد السابق : ص ٢٨٦ .

الأهواز ، ودعا ابنه عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه .

ومن المتكلمين من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحران ، ودليلهم على ذلك : أن حمدان قرمط داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان كان من الصابئة الحرانية ، واستدلوا على ذلك أيضا : بأن صابئة حران يكتمون أديانهم ، ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم ، وكذلك الباطنية لا يظهرون دينهم إلا لمن كان منهم بعد استغلالهم إياه على ألا يذكر أسرارهم لغيرهم .

ويرى آخرون ومنهم عبد القاهر : أنهم دهرية زنادقة ، يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع كلها ، ولميلها إلى استباحة كل مايميل إليه الطبع .

ويقول عبد القاهر[1] والدليل على أنهم كما ذكرناهم ماقرأه في كتابهم المترجم بالسياسة والبلاغ الأكبر والناموس الأعظم ، وهي رسالة عبيد الله الحسين القيرواني إلى سليمان بن الحسن بن سعيد أوصاه فيها بقوله : ادع الناس بأن تتقرب إليهم بما يميلون إليه . يتضح من هذا كيف يتقربون إلى الناس من أي طريق ، لأنهم يهدمون ، وليس لديهم التزام بمبدأ يحافظون عليه . يقول بعد ذلك . فمن أنست منه رشدا فاكشف له الغطاء . والرشد هنا ليس معناه رجاحة العقل ، وإنما معناه الوصول إلى القيادة السهلة ، أي من أنست منه طاعة وسهولة انقياد فاكشف له الغطاء . ثم يقول : وإذا ظفرت بالفلسفي فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا ، وإنا

---

(١) المرجع السابق .

وإياهم مجمعون على رد نواميس الأنبياء على القول بقدم العالم ، لولا ما يخالفنا فيه بعضهم من أن للعالم مدبرا لا نعرفه .

وذكر في هذا الكتاب أيضا إبطال القول بالمعاد والعقاب ، وذكر كذلك أن الجنة نعيم الدنيا ، وأن العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع بالصلاة والصيام والجهاد .

ويذكر أيضا ــ من الأدلة على أنهم من الدهرية ما جاء في هذا الكتاب ــ أيضا ــ من قوله « أكرم الدهريين فإنهم منا ونحن منهم » .

وفي هذا تحقيق نسبة الباطنية إلى الدهرية ، والذى يؤكد هذا أن المجوس يدّعون نبوّة زرادشت ، ونزول الوحى عليه من الله تعالى ، وأن الصابئين يدعون نبوة « هرمس » و « أليس » و « ذيروثيوس » وجماعة من الفلاسفة ، وسائر أصحاب الشرائع ، كل صنف منهم مقرون بنزول الوحى من السماء على الذين أقروا بنبوتهم ، ويقولون : إن ذلك الوحى شامل للأمر والنهى والخبر عن عاقبة مابعد الموت من ثواب وعقاب وجنة ونار يكون فيها الجزاء عن الأعمال السالفة .

والباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون نزول الملائكة من السماء بالوحى والأمر والنهى ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل ، طلبا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة .

ثم تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا يورث تحليلا ، فزعموا أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والمراد بالصوم الإمساك عن إفشاء سر الإمام دون الإمساك عن الطعام ، وزعموا أن

من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها .

وتتضح الأهداف — بصورة كاملة — فى رسالة القيروانى إلى سليمان هذا في قوله : إنى أوصيكم بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع ، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور وإبطال الملائكة فى السماء ، وإبطال الجن فى الأرض ، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم .

كما يتضح التحليل الكامل من الضوابط الخلقية والعلاقات الاجتماعية التى فطر الناس عليها إلى حد تشمئز منه النفس فى قوله فى آخر رسالته وما العجب من شيء كالعجب من رجل يدعى العقل ثم يكون له أخت أو بنت حسناء ، وليست له زوجة فى حسنها فيحرمها على نفسه ، وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى ، وما وجه ذلك إلا أن صاحبهم (أى الرسول ﷺ) حرم عليهم الطيبات .
وليس بعد هذا وضوح فى محاولة الهدم الخلقى بعد الهدم للعبادة ، والهدم للعقيدة ، والمناطحة للفطرة المستقيمة ، ولاينسى فى هذا الهدم أن يمنى أتباعه بالجزاء ، فيقول لسليمان فى هذه الرسالة « وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس »
ولكن أى فردوس يريدون ؟ إنهم لايريدون فردوس الآخرة ، فهم لايؤمنون بها ؛ وإنما يريدون لذات الحياة الدنيا ، فيقول له — أيضا — : وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس .

وفى هذا الذى ذكرناه دلالة على أن غرض الباطنية القول بمذاهب الدهريين ، واستباحة المحرمات ، وترك العبادات ، ومحاربة كل مايتصل بالوحى .

ولكى نقف على أساليب الحركات المنحرفة الباطلة ينبغى أن نتعرف على منهج الحركة الأم ، لأن المنهج واحد وإن تعددت أو تنوعت الأساليب والوسائل من عصر إلى آخر .

منهج الدعوة إلى باطلهم :

ومن عناصرالمنهج الذى اتبعوه :

١ ــ اختيار المدعوين من الجهلة .

٢ ــ اختيار المناخ الملائم ، فيتجنب الحديث فى المجالس التى فيها أهل النظر وأهل العقل .

٣ ــ اتباع أسلوب التدرج مع المدعو ، حتى يصلوا به إلى الانسلاخ الكلى من الإسلام ، وهذه الدرجات وتلك المراتب هى التفرس ، والتأنيس ، والتشكيك ، والتعليق ، والربط ، والتدليس ، والتأسيس ، والمواثيق بالأيمان والعهود ، وآخرها الخلع والسلخ .[١]

فأما التفرس[٢] : فإنهم ذكروا من شرط الداعى إلى بدعتهم أن يكون قويا على التلبيس ، وعارفا بوجوه تأويل الظواهر ، ليردها إلى الباطن ، ويكون مع ذلك مميزا بين من يطمع فيه وفى إغوائه ، وبين من لامطمع فيه ،

(١) انظر فضائح الباطنية لأبى حامد الغزالى ــ تحقيق : عبد الرحمن بدوى : ٢١ .
(٢) المرجع السابق : ٢١ ــ ٢٣ .

ولهذا قالوا فى وصاياهم للدعاة إلى بدعتهم : لاتتكلموا فى بيت فيه سراج ويعنون بالسراج من يعرف وجوه النظر والمقاييس ، وذكروا من شرط الداعى إلى بدعتهم : أن يكون عارفا بالوجوه التى تدعى بها الأصناف ، فليست دعوة الأصناف من وجه واحد ؛ بل لكل صنف من الناس وجه يدعى منه إلى بدعتهم ، أمثال ذلك : من رأى الداعى أنه يميل إلى العبادات حمله على الزهد والعبادة ، ثم سأله عن معانى العبادات وعلل الفرائض وشككه فيها .

ومن رآه ذا مجون و خلاعة قال له : العبادة بله وحماقة ؛ إنما الفطنة فى نيل الملذات . ومن رآه شاكا فى دينه أو فى المعاد والثواب والعقاب صرح له بنفى ذلك ، وحمله على استباحة المحرمات .

ومن رآه من غلاة الرافضة كالسبئية والمنصورية والخطابية لم يحتج معه إلى تأويل الآيات والأخبار ؛ لأنهم يتأولونها معهم على وفق ضلالتهم .

ومن رآه من الرافضة مائلا إلى الطعن فى أخبار الصحابة دخل عليه من جهة شتم الصحابة ، وزين له بغض بنى تيم لأن أبا بكر منهم وبغض بنى عدى لأن عمر بن الخطاب منهم ، وحثه على بغض بنى أمية لأن عثمان ومعاوية منهم .

ومن رآه الداعى مائلا إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده ، وقال : لهما حظ فى تأويل الشريعة ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار ، ثم إلى المدينة ، وأفضى إليه فى الغار تأويل شريعته ، فإذا سألهم الموالى إلى أبى بكر وعمر عن التأويل المذكور لأبى بكر أخذ عليه العهود والمواثيق فى كتمان ما يظهره له ، ثم ذكر له على التدريج بعض التأويلات ، فإن قبلها منه أظهر الباقى ، وإن لم يقبل منه التأويل الأول ربطه فى الباقى ، وكتمه عنه ، وشك

الغِرُّ من أجل ذلك فى أركان الشريعة .

درجة التأنيس[1] :

وهى قريبة من درجة التفرس ، وهى تزيين ماعليه الإنسان من مذهبه فى عينه ، ثم سؤاله بعد ذلك ماهو عليه ، أى سؤاله عن تأويل ماهو عليه ، وتشكيكه إياه فى أصول دينه ، فإذا سأله المدعو عن ذلك قال : علم ذلك عند الإمام ، ووصل منه بهذا إلى درجة التشكيك ، حتى صار المدعو إلى اعتقاد أن المراد بالظواهر غير مقتضاها فى اللغة ، وهان عليه بذلك ارتكاب المحظورات وترك العبادات .

درجة الربـط :

وهو عندهم تعليق نفس المدعو بطلب تأويل أركان الشريعة ، فإما أن يقبل منه تأويلها على وجه يؤول إلى رفعها ، وإما أن يبقى على الشك والحيرة فيها .

درجة التدليـس :

وهى قولهم للغِرّ الجاهل بأصول النظر والاستدلال وأن الظواهر عذاب وباطنها فيه الرحمة ، فإذا سألهم عن تأويل الباطن قالوا : جرت سنة الله تعالى فى أخذ العهد والميثاق على رسله ، ولذلك قال : ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ﴾[2] ، وذكروا له قوله : ﴿ ولاتنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾[3] ،

---

(١) فضائح الباطنية : ٢٤ .

(٢) الأحزاب : ٧ .

(٣) النحل : ٩١ .

فإذا حلف الغر لهم بالأيمان المغلظة وبالطلاق والعتق وتسبيل الأموال فقد ربطوه بها ، وذكروا له من تأويل الظواهر مايؤدى إلى رفعها بزعمهم ، فإن قبل الأحمق ذلك منهم دخل فى دين الزنادقة باطنا واستتر بالإسلام ظاهرا ، وإن نفر المخالف عن اعتقاد تأويلات الباطنية الزنادقة كتمها عليهم ؛ لأنه حلف لهم على كتمان ما أظهروه له من أسرارهم ، وإذا قبلها منهم فقد حلفوه وسلخوه عن دين الإسلام . وقالوا لهم حينئذ : إن الظاهر كالقشر ، والباطن كاللب ، واللب خير من القشر .

قال عبد القاهر : حكى لى بعض من كان دخل فى الباطنية ثم وفقه الله تعالى لرشده وهداه إلى حل أيمانهم : إنهم لما وثقوا منه بأيمانه قالوا له : إن المسلمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة كانوا أصحاب نواميس ومخاريق[1] أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم واستعبدوهم بشرائعهم . يقول الحاكى لى : ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال : ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى ابن عمران من الشجرة فقال له : إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، قال الرجل الحاكى : قلت سخنت عينك ، تدعونى إلى الكفر بالرب الخالق للعالم ، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق ، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى ؟ فإن كان موسى عندك مخرقا فالذى زعمت أنه أرسله أكذب .

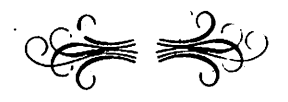
يقول الرجل : فقال لى : إنك لاتفلح أبدا ، وندم فى إفشاء أسراره

---

(١) فضائح الباطنية : ٢٩ ــ ٣٢ .

إلىَّ ، وتبت من بدعتهم [1]

وعن طريق أمثال هذا الرجل من التأبين عرف الناس كثيرا من أسرارهم ، كما أنه يمكن الحصول على هذه الأسرار عن طريق ماكتبوه ووقع فى أيدى المسلمين . وسنرى هذا واضحا فى الفرق التى تمتد بجذورها إلى الباطنية .



---

(١) انظر : الفرق بين الفرق : ٣٠٢ ــ ٣٠٣ .

البابيــة

ونتناول الآن حركة من الحركات الهدامة التي تظهر خطورة التخطيط العدائى للإسلام ، والذى يتخذ المكان المناسب والزمان المناسب والأفكار المناسبة ؛ للانقضاض على الإسلام فى أصوله وفروعه .

ولقد اتفقنا على ألا نسمى مثل هذه الحركات بالحركات الإسلامية ، لأنه لاخير فيها للإسلام والمسلمين ، والشر كله منها . يقول ابن حزم فى أمثال هذه الحركات : إن جميع فرق الضلالة لم يجر الله على أيديهم خيرا ، ولافتح بهم من بلاد الكفر قرية ، ولارفع للإسلام راية ، وما زالوا يسعون فى قلب نظام المسلمين وكتلة المؤمنين ، ويسلون السيف على أهل الدين ، ويسعون فى الأرض مفسدين ، أما الخوارج والشيعة فأمرهم فى ذلك أشهر من أن يتكلف ذكره ، وما توصلت الباطنية إلى كيد الإسلام وإخراج الضعفاء منه إلى الكفر إلا على ألسنة الشيعة .[1]

وأما حديثنا عن البابية ، فسيدور حول العناصر السابقة والتى تبرز لنا هذا التخطيط المعادى ، فزعيمها على بن محمد الشيرازى [2] ولد فى مدينة شيراز من أبوين منسوبين إلى العلوية سنة ١٢٣٥ هـ ، ومات أبوه قبل الفطام ، فتربى فى حجر خاله ميرزا سيد على التاجر ، وشب وتعلم مبادىء العربية والفارسية، وتعلم الخط واشتهر به ، ويبدو أنه لم يحسن من اللغتين إلا رسمهما ،

---

(١) انظر : الفصل جـ ٤ ص ٢٢٧ وانظر البهائية : تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية للشيخ عبد الرحمن الوكيل : ٣٣ .

(٢) انظر : دراسات عن البهائية والبابية : ١١٠ .

ولما بلغ سن الحلم أخذه خاله في متجره ، وعلمه المساومة والمقايضة وسائر الفنون التجارية ، ثم أخذه إلى مدينة يوشهر ، ومكث عنده حتى بلغ العشرين ، وكان في تلك الأثناء مشتغلا بالرياضيات الشاقة ، وماسمى بفن التنجيم وغير ذلك من الأمور الداخلة في دائرة الشعوذة ، وكان يصعد إلى سطح القاعة وهو عارى الرأس ، ويمكث في الشمس من وقت الظهيرة ، إلى العصر ، وليس ذلك في جو معتدل ، وإنما تكون الحرارة في درجة ٤٢ْ م — مثلا ، وهو يتلو الأوراد ، ويعتريه من جرَّاء ذلك نوبات عصبية شديدة (الهستيريا) ، حتى انحطت قواه ، فعظم الأمر على خاله ، ولم يجد له نفعا بنصائحه ، فزجره وعنفه ؛ لينصرف عن هذه الأمور الشاقة ، ولكنه رفض أوامره ، فغضب الخال وسفره إلى « كربلاء » و « النجف » ليستشفى بقبر أمير المؤمنين على والإمام الحسين — رضى الله عنهما — ، وسفره إلى هذه الأماكن جعله قريبا من مجالس كاظم الرشتى بعد أن توطن كربلاء ، واعتكف للرياضيات الشاقة ، وتعرف إلى بعض تلاميذ كاظم وظل يتردد عليه في مجالسه ، وسمع منه الشرح على كتب الأحسائى ككتاب الفوائد وشرحه ، وشرح الزيارة الجامعة ، وشرح العرشية وغيرها . ودُهش أول الأمر من عبارات كاظم والأحسائى ، ثم استأنس بها ، ولازم كاظم الرشتى ، وأخذ يستوضح منه ما يشكل عليه ، ثم انقطع عن مجلسه فترة من الزمن اتفق فيه مع بعضة نفر وتوجهوا إلى مسجد علىّ ، وانقطعوا للرياضة ، وهؤلاء المرتاضون يلقبون بالأربعينية ، وبعد ماتمت رياضته خرج من الخلوة إلى الجلوة بمظهر غير المظهر العادى ، فصار يحضر مجالس كاظم الرشتى وهو في حالة من الذهول والاندهاش .

وبدأ يتكلم مع بعض كبار تلاميذ كاظم بكلمات اعتبروها خارجة عن منهج الإسلام ومخالفة له ، فلاطفوه وجاملوه في أول الأمر ، ولكنهم هجروه أخيرا

بعدما تبين لهم حاله .

وبدأ يدعو الناس خفية ، وأظهر من التقشف ماجعل السذج يميلون إليه ، وبعد ماكان يستأنس من أحدهم ويطمئن على سذاجته ، يبدأه بقوله : « ادخلوا البيوت من أبوابها » .

ويقول لهم : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، ويعنى بذلك أن الوصول إلى الله تعالى ممتنع ؛ لأن الطريق مسدود إلا عن طريق الرسالة والنبوة والولاية ، ولما كان الوصول إلى تلك المراتب صعبا ولايمكن إلا بواسطته فأنا تلك الواسطة الكبرى ، وكما لايجوز الدخول إلا من الباب فأنا ذلك الباب ، فسمى نفسه الباب ، وترك اسمه الأصلى ، وهذا سبب تسميتهم بالبابية ، ولما اشتهرت دعوته مال إليه بعض السذج ، ونفر منه أتباع الأحسائى وكاظم ، وكفره أهل الحديث وعلماء الأصول . ومع كل هذا تزعم البابية أن آخر مبشر بعد الأنبياء والرسل بالبابية رجلان عالمان وهما : أحمد الاحسائى وكاظم الرشتى[1] ووصل عدد اتباعه ثمانية عشر رجلا ، علمهم تقاليده ، وأساس معتقداته ، وأرسلهم إلى بلاد إيران لتبشير الناس بظهوره ، وحذرهم من إظهار اسمه حتى يصدر لهم أمرا آخر .

ثم بدأ يشتغل بتأليف الكتب وتدوين الأحكام ، وأول كتاب ألفه فى كربلاء هو : الرسالة العملية فى الفرائض الإسلامية ، وكان منهجه فى هذا منهج العابث الذى ينبذ من الفرائض ما ينبذ ويفند ما يفند دون أساس علمى ،

---

(١) انظر : تاريخ البابية ، أو مفتاح باب الأبواب ــ د . مرزا محمد مهدى خان : ١١٦ ــ ١١٨ .

وانظر : البهائية للسيد محب الدين الخطيب : ص ٤ ، ٥ .

ثم شرع فى شرح سورة يوسف فى كتاب جعله فى اثنى عشر فصلا ، وكرر قوله القبيح : « إننى أفضل من محمد ، كما أن قرآنى أفضل من قرآن محمد ، ماذا قال محمد : يعجز البشر عن الإتيان بسورة من سورة القرآن » فأنا أقول : يعجز البشر بحرف مثل حروف قرآنى . إن محمدا كان بمقام الألف ، وأنا بمقام النقطة ، ثم إنه عند توجيه دعاته إلى البلاد الفارسية حثهم على إيراد اسمه بأى طريقة فى المآذن والمنابر ، وذلك بعد أمره الأول بالكتمان ، وأصبح يهتم بإعداد العدة للسفر إلى الحجاز ، وكان قصده من ذلك إثبات مشروعية دعوته وإقامة أمر مشروعيتها على السذج ، وحسما للقيل والقال ، لأن المهدى المنتظر ينتظر المسلمون ظهوره من مكة المكرمة ؛ واجتمع معه أصحابه فرحلوا إلى بغداد ومنها إلى البصرة ، وأقلعوا منها فى سفينة شراعية إلى الحجاز فى سنة ١٢٥٩ هـ ، ولكن هذه الرحلة لم تسلم من القيل والقال ، فخبر وصوله إلى مكة لا يؤكده الواقع ، فلم يصل إلى الحجاز ولم يدخل مكة ، وذلك بسبب هيجان البحر وغرق السفينة ، فعانى الباب من الغرق وخرج مع أتباعه إلى « يوشهر » وهذا يؤكده مايلى :ـ

١ ـ لو كان الباب سافر إلى الحجاز لسمعه الحجاج وأذاعوا أمره ، ولكن لم يثبت ذلك .

٢ ـ أن المسلمين عموما والشيعة خصوصا ينتظرون المهدى ، فهل يكتم المسلمون هذا الأمر بعد ظهوره .

٣ ـ أين مواقف الناس فى مكة من مؤمن به وكافر به .

---

(١) انظر تاريخ البابية ـ د ـ مرزا محمد مهدى : ١٢١ .

٤ ــ وهل كانت دعوته فى مكة دعوة سرية أم كانت خاصة لمن صحبه ؟

وإذا كانت خاصة فلماذا كان السفر ؟

وقيل : إنه سافر إلى مكة ، ولكن هدأ هوسه هناك وخاف ، فلم يجرؤ على إظهار دعوته ، وأما دعاته الذين توجهوا إلى إيران ، فمنهم محمد على المازندراكى،الذى توجه إلى مدينة كرمان مع أحد اتباعه ، ولسوء حظه وبتدبيره السيء الذى كان يطمع فى أن يستميل شخصية كبيرة حتى يدخل فى البابية عدد كبير ــ توجه إلى محمد كريم خان ومعه بعض رسائل الباب ، ومجموعة من الخطب على سياق نهج البلاغة لعلى ــ رضى الله عنه ــ ، ومعه رسالة خاصة إلى محمد كريم يدعوه فيها إلى الإيمان بالباب ، ونبذ أحكام القرآن ، ورفع لواء العصيان مستدلا ببعض الأخبار الموضوعة ، مثل : يأتى المهدى بشرع جديد وكتاب جديد هو على العرب شديد » .

وهذا الخبر فيه من المعانى ما يدل على التدبير المحكم لإفساد المجتمعات الإسلامية ، وإثارة العصبية ، فالخبر من تلفيقه ومن سجعه ، ويحرك العصبية الشعوبية ، ومن مضامين هذه الرسالة ما أورده محمد كريم خان فى كتابه الذى يرد فيه على الباب « قم وجهز ما استطعت من الجيش وتوجه إلى شيراز ، إذ نحن متوجهون إليها بعد سفر الحجاز وانتظر أوامرنا » .

ولايخفى ما فى هذا الكلام من الأغراض العسكرية والسياسية فى الفتنة المسلحة التى تظهر لنا منهج التخطيط العدائى للأمة الإسلامية .

ولكن بعد وصول الرسالة إليه جمع كبراء بلده فى الجامع الكبير مع مبعوثى الباب ، وقرأ عليهم كتاب الباب ، وبين مافيه من مروق الباب عن

الإسلام ، مع تشويش عبارات كتبه وخروجه عن قواعد الصرف والنحو فى العربية والفارسية ، وعد نحو عشرين غلطة نحوية . ومن دعاته من توجه إلى ولاية خراسان ،ولكن لم يتبعه أحد ، غير أن أحد عمال خراسان وهو حسين بشروية افتتن به ، وصار من أقرب أتباعه ، ولقبه الباب بـ (باب الباب) ، وكان من الدهاة فى التدبير وقوة الجسم .[1]

ولنا أن نتساءل : لماذا اقتصر الباب على خراسان وكرمان دون بقية بلاد إيران فى أول الأمر ؟

ويتضح لنا أن هذا الاختيار مظهر من مظاهر التدبير والتخطيط العدائى فى دعوته للتمويه على الناس ؛ وذلك لما يأتى :ـــ

١ ـــ ترديد الخبر الآتى على الألسنة :

« إذا رأيتم الرايات السود من قبل خراسان فأتوها ، فإن فيها خليفة الله المهدى ، ولذلك عندما سارت أول كتيبة من البابية لقتال المسلمين من خراسان بقيادة حسين بشرويه ، كانت راياتهم سوداء » .

٢ ـــ فى كرمان كان محمد كريم خان ـــ فى بلدته ، وكان من أكابر الأسرة الحاكمة فى إيران ، واشتغل بالعلوم الإسلامية ، والتف حوله عدد كبير ، فلو تابع الباب لدخل البابية ربع عدد الفرس تقريبا ، ولكن ـــ كما رأينا ـــ رد محمد كريم على كفر الباب ، وألف كتابا فى ذلك .

كما أرسل الباب دعاة آخرين فى صورة سرية إلى تبريز وغيرها ، وعهد إليهم أن يبلغوا دعوته إلى بسطاء العقول .[2]

---

(١) انظر : تاريخ البابية ـــ ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق : ١٢٧ .

وأما الباب فقد أخذ بعد ذلك يعد مايلزم لاستحكام أمره وإظهار دعوته ، فوجه دعاته إلى شيراز موطنه وأصفهان ، ولكن لسوء حظه أن توجه الدعاة إلى رئيس الفقهاء الملقب بأبى تراب فأظهروا له الرسالة ، فهاج الرجل من هذا الحادث الخطير ، وأخبر الفقهاء ، وأخبر الوالى ، فاستحضر الوالى دعاة الباب أمام جمهور العلماء وطلب منهم ذكر دعوة الباب ، فلم ينكروا شيئا ، وطلب الفتوى من العلماء فأفتوا بكفرهم ووجوب قتلهم جميعا ، وتم ذلك ، وأرسل الوالى ليخبر حكومة طهران ، وأرسل فى طلب الباب ، فأتى به وأمهله بضعة أيام ، ثم استحضره الوالى سرا ، وبالغ فى إكرامه وتأسف له عما فعله مع دعاته ، فالتبس عليه الأمر وانخدع وتهلل وجهه ، وأخذ هو يلاطف الوالى ويسأله عن سبب الغلظة من دعاته ، فقال الوالى متقنا الحيلة : (مولاى ، إنه إلى الأمس ماكان يوجد لشخصك المبارك عدو مبين مثلى ، فرأيت فى المنام أنك أنت أيها المولى الجليل حضرت إلى مضجعى وغمرتنى بأصابع رجلك اليمنى ، فقمت مذعورا ، ثم خاطبتنى : إيه ياحسين خان == إنى أرى نور الإيمان يلوح فى جبهتك ، فاستيقظت خائفا ، وعلمت من هذا أنك المهدى المنتظر .

وهنا . نجد الباب ينتهز الفرصة للتلبيس على الوالى ، فيقول : طوبى لك أيها الأمير إن الذى رأيته لم يكن فى المنام بل كان فى اليقظة ، وإنى بنفسى حضرت مضجعك ، وخاطبتك بما سمعت ؛ لما أعرف فيك . واطمأن الوالى إلى أنه أمام شخصية كاذبة خاطئة ، فنهض وعرض عليه أمواله وجنوده ، ولعله يريد من ذلك أن يقف على حقيقة أمره فى أنه ليس مخرفا ومشعوذا فقط ، وإنما يريد السيطرة والملك عن طريق القوة ، ووجد من الباب قبولا وترحيبا ، ودهش عندما سمع من الباب وعدا بأنه سيجعله سلطانا للروم بعد

امتلاك الدنيا ، فتنهد الوالى مبالغة فى حبكة الموقف ، وأخذ يقول : مااتبعتك طمعا فى الدنيا ، ولا رغبة فى السلطان ، واستمر الوالى فى إكرامه وإكرام أتباعه ، ولكنه طلب من الباب أن يكف دعاته عن الدعوة ، خشية الفقهاء ، حتى يتم استعداده ، ولما أمن الباب تماما واطمأن إلى الوالى ، جمع الوالى الفقهاء وأعيان البلدة وأخبرهم بما فعل ، وطلب منهم الفتوى بعد أن يستمعوا إليه ، وقال الوالى للباب : إن الهدف من الاجتماع دعوة الناس ، فأذعن الباب ، وخرج فى غرور إلى الناس قائلا :

« ألم يأن لكم أيها العلماء أن تنبذوا الهوى ، وتتبعوا الهدى ، وتتركوا الضلال ، وتسمعوا أقوالى ، وتذعنوا لأوامرى ، إن نبيكم لم يخلف لكم بعده غير القرآن فهاكم كتابى « البيان » ، فاتلوه واقرأوه تجدوه أفصح عبارة من القرآن ، وأحكامه ناسخة لأحكام الفرقان ، فاسمعوا وانتصحوا وأبقوا على أنفسكم وعلى أطفالكم وعلى أموالكم قبل أن تسل السيوف » .

وهذا الكلام الذى خرج به على الناس يتضمن من أغراضه فى نسخ القرآن ، ومحاولة استمالة العلماء بالترغيب والترهيب ، والتحذير من القتل الذى لايفرق بين الرجال والأطفال ، إن لم يستجيبوا لدعوته ، وكان يركن فى ذلك إلى الوالى الذى أشبع فيه الغرور بالحيلة التى نسج خيوطها ، وأحكم خطتها ؛ للإيقاع به .

وأما هذا البيان الذى يدعى أنه أفصح عبارة من القرآن ، ففيه من سخف المعانى وركاكة الأسلوب مايدل على شخصية قائله ــ إن لم يكن قد صنع له ــ وإليكم بعضا منه .

يقول : (بسم الله الأمنع الأقدس ، إننى أنا الله لا إله إلا أنا ، وإن مادونى خلقى ، قل إن ياخلقى إياى فاعبدون) . وهذا الكلام يدل على أنه يأخذ آيات القرآن الكريم ليعبث بها ، ويضيف ألفاظا ، لامعنى لها من عنده ، يفسد قوة الأسلوب فضلا عن التناقض فى المعانى ، فهو يهدم هذا القول بعد قليل ، فيقول :

(قد خلقتك بك ، ثم كل شىء بقولك أمرا من لدنا ، إنا كنا قادرين ، وجعلتك الأول والآخر والظاهر والباطن ، إنا كنا عالمين) ففى كلامه الأول ينسب الخلق إلى الله ، وفى كلامه الثانى يعتبر نفسه داخلا فى هذا الخلق ، ويعطى لنفسه من صفات الخالق فى أنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهذا تناقض يستمر فى كتابه فلو تناولنا — مثلا — قضية أخرى ، لنرى ماذا يقول فى النبوات ، لوجدنا قوله : (وما بعث على دين إلا إياى ، وما نزل من كتاب إلا علىّ ، ذلك تقدير المهيمن المحبوب) وينسى هذا الكلام ليقول :

(محمد رسول الله والذين هم شهداء من عند الله ، ثم أبواب الهدى وخلقوا فى النشأة الأخرى بما وعد فى الفرقان إلى أن يظهر عدد الواحد فى الواحد الأول ، فضلا من لدنا ، إنا كنا فاضلين) .[1]

فهو فى هذا الكلام (الذى لامعنى له) يهدم ما قاله من قبل ؛ حيث يذكر فى قوله الأول « لادين إلا دينك ، ولاكتاب أنزل إلا عليك » . ثم يقرر فى قوله الثانى أن محمداً رسول الله ، وهكذا يبدو التناقض مع الركاكة .
ووجه إليه العلماء فى هذا المجلس سؤالا ، قالوا له فيه :

---

(١) انظر : البابيون والبهائيون للسيد عبد الرازق الحسينى : ٥٢ وانظر : ذيل الملل والنحل : ٤٩ وانظر : الكاشف : ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(إن الباب يفترى أنه جاء بدين جديد ، ومن سنة الله أن الشرع اللاحق يأتى مكملا للشرع السابق ، فإن كان الباب صادقا فى زعمه فليعين النقض الذى زعم أنه كان فى الإسلام ، وليبين ماكمله هو به) ، فلم يستطع أن يقول شيئا ، فرأى بعضهم أنه مختل فى قواه العقلية ، ورأى أكثرهم أنه مرتد وصاحب فتنة عظيمة تستهدف القضاء على الدين ، فصدرت الفتوى بقتله ، فأخذ هو وتابع من أتباعه لتنفيذ القتل ، وهنا تظهر اليد الخفية ؛ لتشير إلى التخطيط العدائى الخفى الذى يمسك بمثل تلك الدمى ويحركها ؛ لتمثل الأدوار التى رسمت لها ، فظهر القنصل الروسى الذى دس قدرا من المال فى يد رئيس الفرقة المكلفة بإعدامه لإنقاذه .[1]

فأطلقت الرصاصات الكثيرة المتتابعة فى تابعه ، وأطلقت رصاصة فى الحبل الذى كان مربوطا فيه ، فاستطاع الهروب إلى مكان سجنه ، ولكن الجنود تبعوه وقتلوه .

وبعد استعراضنا لقصة الباب فى دعواه المنحرفة ، نضع أيدينا سريعا على مظاهر التخطيط العدائى ، للإسلام فى الجوانب الآتية :ـ

١ ـ اختيار المكان المناسب ، حيث كانت إيران مكانا مهيئا لمثل هذه الحركة ؛ لوجود مذاهب الشيعة فيها ، ولقربها من الحدود الروسية .

٢ ـ اختيار من سيقوم بالدور بمواصفات معينة ، يستطيع أن يكذب وأن يصدق نفسه ، ويستطيع أن يخرج عن الحدود المعقولة إلى الشعوذة والخرافة ، وظهر هذا لهم فى نشأة الباب كما مر بنا .

---

(١) انظر : المذاهب المعاصرة : ٢٤٤ .

٣ ــ اختيار الفكرة المناسبة ، وهذا ظهر فى فكرة الرجعية والمهدى المنتظر ؛ للتلبيس على الناس .

٤ ــ اختيار الزمن المناسب ؛ حيث كان المجتمع الإسلامى فى هذه الفترة قد انفصل سلوكه عن مبادئه وصار يعانى من ضعف شديد .

وهذه الاختبارات تتم بطريق خفى من قبل المخططين ، ولكن تظهر الأيدى المخططة دون إرادة منها فى بعض المواقف ، كظهور القنصل الرومى ، ومحاولته إنقاذ الباب من الإعدام ، ولاختياره مكان سجنه لهروبه المؤقت ، حيث يدير إخراجه بعد ذلك ، ويظهر لنا كذلك استمرار المخطط ، ولكن بزعامة شخصية أخرى فيها من الصفات مايناسب هذه الدعوة كشخصية البهاء ، التى سنرى فيما لعبته من أدوار الظهور الأقوى لهذه الأيدى الخفية ، حيث تضاف إلى البهائية أفكار جديدة أكثر وضوحا فى خدمة الاستعمار من أفكار البابية ، وكأن المخطِّط أراد من البابية أن تكون الوعاء الذى تخطم فيه الأفكار الإسلامية الصحيحة ، لتنبت على أشلائها أفكار تخطم الفكرة الاستعمارية ، مثل وحدة الأديان ، ووحدة اللغة ، وإبطال الجهاد ، والدعوة إلى الإسلام العالمى ، وغير ذلك من أفكار نتناولها فى البهائية .

هذه الأمور ــ أيضا ــ تؤكد أن التخطيط لمثل هذه الحركات يبدأ مبكرا ، ولا ينفى هذا أن تستغل حركات مشابهة للقيام بالدور نفسه ، إن نشأت نشأة بعيدة عن أيدى المخططين .

البهــائيــة

ويستمر التخطيط العدائى للإسلام ، ويتخذ أشكالا أخرى فى فرقة جديدة ،تعد امتدادا للبابية ، حيث أن مؤسسها تلميذ من تلاميذ الباب ، وهو حسين على المازندرانى(١)، الذى سمى بالبهاء ، وقد ولد سنة ١٢٣٣ هـ الموافق ١٨١٧ م ، ونشأ فى طهران نشأة لاتختلف عن نشأة الباب ، وكانت له صلة وثيقة بالباب ، وكذلك بامرأة من أتباع الباب « قرة العين » ، كان لها دور خطير فى إعلان نسخ الشريعة فى مؤتمر بدشت .

والعلوم التى حصلها « حسين على » يغلب عليها الشعوذة والروحية الخيالية المخرفة ، من القول بالحلول ، ووحدة الوجود ، وخليط من الخرافات والأفكار الباطنية .

والأيدى المخططة للبهاء كانت أكثر وضوحا فى البهائية منها فى البابية ، حيث تبلورت مجموعة من المبادىء يظهر فيها دور التخطيط ، لصلتها المباشرة بأهداف المخططين ، فمن هذه المبادىء والأفكار :

١ ــ الدعوة إلى وحدة الأديان .
٢ ــ الدعوة إلى وحدة الأوطان .
٣ ــ وحدة اللغــــة :

---

(١) انظر : الكاشف : ٢٣٨ وخفايا البهائية : ١١١ والبابيون والبهائيون : ٥٣ ، ٥٨ ، ٥٩ .

٤ ـــ الدعوة إلى السلام العالمى وترك الحروب .

٥ ـــ المساواة بين الرجال والنساء .

وبالنظر إلى هذه الأفكار نرى كيف أنها تخدُم خدمة مباشرة أعداء الإسلام ، مع صياغة العناوين صياغة قد تجد رواجا لدى عامة الناس وبسطائهم .

فمثلا يراد من وحدة الأديان القضاء على الأديان ، وليس توحيد الأديان على ماصح منها ، ويتضح ذلك من كلام حسين على ؛ حيث يقول : (يا علماء الأمم غضوا الأعين عن التجانب ، وانظروا إلى التقارب والاتحاد ، وتمسكوا بالأسباب التى توجب الراحة والاطمئنان لعموم أهل الإمكان ، وعاشروا مع الأديان بالروح والريحان) .[1]

وواضح من هذا الكلام أن الغاية هى إراحة الناس بعدم التمسك بأى مبدأ ؛ لأن التمسك يجلب للإنسان التعب وقلة الراحة ، ويتضح هذا أكثر فى قوله :

« وعاشروا مع الأديان » ؛ حيث لايفرق الإنسان بين مبدئه ومبدأ غيره ، ويتضح كذلك فى قول ابنه عباس ، الذى لقب بعبد البهاء ، والذى خلف والده فى زعامة الفرقة : (يجب على الجميع ترك التعصبات) ، ويقول فى جواب شخصى لرجل سأله : (أليس من المستحسن بقائى فى الطريقة التى درجت فيها طول أيام حياتى ؟ فيقول له عبد البهاء : ينبغى ألا تنفصل عنها ، فاعلم أن الملكوت ليس خاصا بجمعية مخصوصة ، فإنك

---

(١) انظر : البهائية ـــ إحسان الهى : ٩٧ .

يمكنك أن تكون بهائيا مسيحيا وبهائيا مسونيا ، وبهائيا يهوديا ، وبهائيا مسلما) [(١)] وبهذا الكلام تتضح الغاية من الدعوة إلى وحدة الأديان .

وتتضح خدمة المستعمر فى هذه الفكرة ؛ حيث لايكون الإنسان على مبدأ يدافع عنه قد يتعارض مع مصالح المستعمرين .

ويتضح ذلك ـــ أيضا ـــ فى دعوتهم إلى وحدة الأوطان ، فمعناها عندهم ألا يكون للإنسان جزء مملوك من الأرض دون الآخرين ، ويعنى ذلك : عدم تمسك الناس بأرضهم وبأوطانهم ، فإذا جاء المستعمر إليهم فلا ينبغى أن يقاوموه ، ومن أجل ذلك نرى « حسين على » يقول فى صراحة يصل فيها إلى القول بمحو الجهاد :

(البشارة الأولى التى منحت من أم الكتاب فى هذا الظهور الأعظم محو حكم الجهاد من الكتاب) [(٢)].

وأما الدعوة إلى وحدة اللغة ، فهى دعوة يراد بها القضاء على اللغة العربية التى تمثل وعاء الإسلام ، ولايخفى ما فى الدعوة إلى توحيد اللغة من سفاهة ، حيث أنها غير عملية ، بل من آيات الله اختلاف الألسنة والألوان .

والدعوة إلى السلام العالمى ليس معناها الوصول بالعالم إلى سلام حقيقى ، وإنما الوصول إلى الاستسلام الذليل ، استسلام الأنعام لمن يقودها ، فيقول فى ذلك : لأن تُقْتَلوا خير من أن تَقْتُلوُا ، ويقول : ولايجوز رفع السلاح ولو للدفاع عن النفس) [(٣)]، وهو بهذا يقدم خدمة جليلة

---

(١) خطابات عبد البهاء : ٩٩ وانظر البهائية لإحسان الهى : ٩٨ .

(٢) انظر : البهائية لإحسان الهى : ١١٥ .

(٣) المرجع السابق : ١٢٥ .

للمستعمر ، حيث لايواجه بروح جهادية ، ولا بسلاح مرفوع ، ولا بمبادىء تزعجه .

وأما الدعوة إلى المساواة بين الرجال والنساء ؛ فلا يخفى مافيها من إفساد اجتماعى ، حيث لاتوجد الضوابط فى المجتمع ، ولاتعرف الوظائف التى تناسب الرجال والوظائف التى تناسب النساء ، ويكون هذا الأسلوب أقرب الطرق إلى تحطيم المجتمعات عن طريق التحلل وإفساد المرأة وتمكينها وإفساد الرجال .

هذه هى الأفكار التى دعى إليها « حسين على » حتى مات فى عكا سنة ١٣٠٩ هـ الموافق ١٨٩٢ م ، حيث أوصى بالأمر بعده لولده الذى لقبه بعبد البهاء ، واسمه « عباس » ، وقد سار عباس على طريقة أبيه ، ولم يستطع أن يخفى صلته بالمستعمر ؛ حيث ذهب وتنقل فى مدن الغرب يمدحهم ويتقرب إليهم ، وكان من أساليبه التلون بالألوان المناسبة لإيهام الناس بصلاح دعوته ، فيقول الأستاذ محمد عبده[1] « أنا لم أفهم من عباس عبد البهاء شيئا ، وإنما صرح لى أن قيامه لإصلاح مذهب الشيعة ، وتقريبه من مذهب أهل السنة ، وكان يحضر معه الجمعة ، على الرغم من أن والده أبطل الجمعة وخطب مرة فى لندن فقال :

(الناس قد نسوا تعاليم بنى إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمى الأديان ، فجددها البهاء) كما خطب فى نوادى لندن وكنائسها ومجامعها ينافقهم فى خطبه ، ويبين صلته القوية بمن صنعوه وساندوه من الانجليز ،

---

(١) انظر : خفايا الطائفة البهائية : ١٢٢ والكاشف : ٢٤٠ .

فيقول فى إحدى خطبه :

إن مغناطيس حبكم هو الذى جذبنى إلى هذه المملكة ويقول :

« أصبحت المدينة الغربية متقدمة عن الشرقية ، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين[1] ولايخفى ــ بعد هذا ــ دور المخططين الذين يقفون وراء المسرح أو فى صندوق الملقن الذى يزود القائمين على هذه الخطة من أصحاب الحركات الهدامة .

وبعد هذه الرؤية للبهائية مع البابية ، نرى تعدد المخططين للحركات الهدامة داخل المجتمعات الإسلامية ، ولكن الهدف واحد ، وقد تتنوع الأساليب مع تنوع الظروف ، فعلى الرغم من أن البهائية فرع عن البابية ، وحركة تزعمها تلميذ للباب ؛ إلا أن المخطط للبهائية هم الانجليز ، والمخطط للبابية هم الروس ، والغاية ــ كما أسلفنا ــ واحدة ، وهى محاولة تدمير هذه المجتمعات ، وجعلها سلسة القيادة لهؤلاء الأعداء .



(١) انظر : الكاشف : ٢٤٣ .

القاديانيــة

ويظهر أثر التخطيط العدائى للإسلام بصورة أوضح فى القاديانية ، حيث تم اختيار المكان المناسب أيضا ، والرجل الذى يقوم بالمهمة كما تم اختيار الأفكار التى تناسب ، وإن كان اختيار الأفكار فى هذه الحركة (مكشوفا) وظاهرا بصورة أوضح من الأفكار السابقة فى البابية والبهائية لخدمة المستعمر .

فاختيار الهند باعتبارها مجمعا لمذاهب متضاربة ومعتقدات متباينة وأفكار متناقضة كان مناسبا لتبنى حركة القاديانية ، وأما الرجل الذى سيقوم بهذه المهمة فهو ميرزا غلام أحمد القاديانى ؛ فإنه مهيأ فى شخصيته التى عرفت بالتطلع إلى تبوء الزعامة الدينية والاستيلاء على العالم الإسلامى باسم النبوة ، كما عرف بالخلل العقلى ، وكذلك عرف بالولاء والخدمة للحكومة البريطانية .

وأما الأفكار التى تصلح للتمويه على الناس فقد كمنت فى أول الأمر فى فكرة الإصلاح ، التى تدرج بعدها إلى أن روح المسيح قد حلت فيه ، وأن مايلهمه كلام الله كالقرآن الكريم والتوراة والإنجيل ، وأن المسيح سينزل فى آخر الزمان فى قاديان ، وأن قاديان هى البلدة المقدسة المكنى عنها فى القرآن بالمسجد الأقصى ، وأن الحج إليها فريضة ، وأنه قد أوحى إليه بآيات تربو على عشرة آلاف آية ، وأن من يكذبه كافر ، وأن القرآن ومحمد وسائر الأنبياء قبله قد شهدوا له بالنبوة ، وقد عينوا زمن بعثته ومكانها إلى غير ذلك من الضلالات الشنيعة .

وقد ولد هذا الضال فى قرية قاديان بالهند سنة ١٨٣٩م[١]، وتلقى فيها مبادىء العلوم ومنها الطب والمنطق والفلسفة ، واشتغل بالوظائف فترة من الزمن .

وقد أصيب فى شبابه بلوثة عقلية ونوبات عصبية ، وكان يتداوى من مرضه بالأدوية والمواد المنكرة ، ويقول : لقد ظللت منذ حداثة سنى وقد ناهزت الستين الآن أجاهد بلسانى وقلمى ؛ لأسرق قلوب المسلمين إلى الإخلاص للحكومة الإنجليزية ، والنصح لها ، والعطف عليها ، وأنفى فكرة الجهاد التى يدين بها بعض جهال المسلمين ، والتى تمنعهم من الإخلاص للإنجليز ، وأنا مؤمن بأنه كلما كثر عدد أتباعى قل شأن الجهاد ، ويلزم الإيمان بى ، وأنى مسيح ، أو مهدى ، إنكار الجهاد ، وقد ألفت كثيرا فى تحريم الجهاد ضد الإنجليز الذين أحسنوا إلينا ، والذين تجب علينا طاعتهم بكل إخلاص .

وهذه الأفكار كلها قد ضمنها كتابه « براهين أحمدية » ، « ورسالة التبليغ » وكلها كفر وافتراء على الله تعالى وعلى رسوله ، وهى نفسها التى يدعو إليها أتباعه الآن .

ونظرا لخطورة هذه الأفكار ، واستمرار الدعوة إليها ، والإبقاء على روح التبعية ، واستساغة فكرة الاستعمار ، والولاء له ، نعرض بعض الشهادات للعلماء المعاصرين للدعوة ، والذين ردوا عليها ، وكشفوا سؤاتها ، من أهل الهند . فمن هؤلاء الأستاذ أبو الحسن الندوى الذى يعتبر قضية

---

(١) انظر : القاديانية : ٥ .

القاديانية قضية تهم كل مسلم فى أى بلد كان ، لأنها قضية لها اتصال كبير ببعض مبادىء الإسلام الأساسية ، ويخشى أن تستفحل هذه القضية يوما من الأيام لو تغافل عنها المسلمون ، فتصبح مصدر تهديد للعالم الإسلامى كله .

وهذه المسألة قد شغلت الفكر الإسلامى فى باكستان بحق ، وهى مسألة مقلقة تواجه الكيان الإسلامى ، والذين يعيشون خارج تلك الأرض قلما يعرفون خطرها . إن هذه المسألةليسترمزا للطائفية الضيقة أو العصبية الدينية كما يتخيله كثير من الناس ؛ بل هى فى صميم المصلحة الإسلامية وحياة المسلمين ، وقد تحقق علميا وتاريخيا أن القاديانية وليدة السياسة الإنجليزية ، وقد أهم بريطانيا وأقلقها حركة المجاهد الشهير الإمام أحمد بن عرفان سنة ١٢٤٠ هـ ، وكيف ألهب شعلة الجهاد وبث روح النخوة الإسلامية والحماسة الدينية فى صدور المسلمين فى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وكيف التف حوله آلاف من المسلمين ، عانت منهم الحكومة الإنجليزية فى الهند مصاعب عظيمة ، وكانوا موضع اهتمامها ، ورأت كذلك محمد أحمد السودانى يقوم فى السودان باسم الجهاد ، فكاد يقضى على الحكم الإنجليزى فى السودان ، وكانت دعوة جمال الدين الأفغانى تنتشر فى العالم الإسلامى ، وعرفت حكومة الإنجليز هذا ، ودرسته ، وعرفت أن الدين هو الذى يحرك المسلمين ؛ ولذلك رأوا أن يكون التأثير عليهم باسم الدين أيضا ، ولذلك اختاروا رجلا يقوم بمنصب دينى يجمع حوله بعضا من المسلمين ، ويخدم سياسة الإنجليز ، وكان هذا الرجل هو غلام أحمد القاديانى ، الذى اجتمعت فيه ثلاث خصال .[1]

---

(١) انظر : القاديانية : ١٩ .

أولاهما : الطموح إلى تبوء الزعامة الدينية ، والاستيلاء على العالم الإسلامى باسم النبوة .

وثانيهما : الخلل العقلى ، وله شواهد وبينات تفيض بها كتبه ، وقد تواتر ذلك عنه واستفاض .

وثالثهما : الأغراض السياسية وخدمة الحكومة البريطانية ، وتدرج القاديانى من دعوى التجديد إلى المهدوية ، ومن المهدوية إلى المسيحية ، ومن المسيحية إلى النبوة ، حتى تم ماأراده الإنجليز .[1]

وقدموا له الحماية ومكنوه من نشر دعوته ، ولذلك ظل حافظا لعهدهم معه ، حيث صرح أنه غرس ماغرسته الحكومة الإنجليزية ، وذلك فى التماس قدمه إلى حاكم مقاطعة بنجاب الإنجليزى يوم ١٤ فبراير عام ١٨٩٨ م وقال .

أيضا لقد قضيت عمرى فى تأييد الحكومة الإنجليزية ونصرتها ، وقد ألفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الإنجليز من الكتب والنشرات ما لوجمع بعضها إلى بعض لملأ خمسين خزانة ، وقد نشرت جميع هذه الكتب فى البلاد العربية ومصر والشام وكابل والروم[2] .

وتكرر هذا فى كلامه كثيرا ، ليجدد العهد لأسياده من الإنجليز ، وبقيت الجماعة القاديانية فى عهد مؤسسها وبعده فى معزل عن جميع

---

(١) انظر : القاديانى والقاديانية : دراسة وتحليل للأستاذ أبو الحسن الندوى ص ٦٧ وما بعدها .

(٢) انظر القاديانية : ٢٠ ــ ٢١ نقلا عن ترياق القلوب تأليف غلام أحمد القاديانى : ١٥ .

الحركات التحررية ، مقتصرة على إثارة المناقشات والمباحثات حول موت المسيح ، وحياته ، ونزوله ، ونبوة غلام أحمد ، مما لا اتصال له بالحياة العامة والمشاكل التى كان يعيشها العالم الإسلامى مع المستعمرين الأوربيين ، وعلى رأسهم الإنجليز ، فيقول أبو الحسن الندوى « وقد فزع لهذه الفتنة علماء الإسلام وقادة الفكر فى الهند ، وكان فى مقدمة المحاربين لها الشيخ محمد حسين البتالوى ، ومحمد على المنكيرى ، مؤسس ندوة العلماء ومن هؤلاء المفكر الإسلامى الكبير الدكتور محمد إقبال ، الذى صرح فى مؤلفاته بأن القاديانية ثورة على نبوة محمد ـ ﷺ ـ ، ومؤامرة ضد الإسلام وأن القاديانية ليست جزءاً من الأمة الإسلامية العظيمة ، قال إقبال فى رسالة وجهها إلى كبرى صحف الهند الإنجليزية التى أثارت هذه المسألة : إن القاديانية محاولة منظمة لتأسيس طائفة جديدة على أساس نبوة منافسة لنبوة محمد ـ ﷺ ـ وجاء فى رده على كلمة نهرو رئيس الهند (الذى تساءل : لماذا يلح المسلمون على فصل القاديانية عن الإسلام ، وهى طائفة من طوائف الإسلام الكبيرة ؟ والجدير بالذكر أن نعرف أن الزعماء المواطنين فى الهند قد رحبوا بالفكرة القاديانية ، لأنها تفيض على الهند بالقداسة ، وتولى المسلمين شطر الهند عوضا عن مكة ، فيتخذونها قبلة ومركزا روحيا .

وكان لبعض الصحف الهندوكية أن تتعاطف مع القاديانيين ، فتنشر المقالات فى تأييدهم ، وتبين للقراء أن الخلاف فى باكستان بين القاديانيين والمسلمين صراع وتنافس بين النبوة العربية وأتباعها والنبوة الهندية وأتباعها) فقال الدكتور إقبال ردا على كلمة نهرو : إن القاديانية تريد أن تنحت من أمة النبى العربى ـ ﷺ ـ أمه جديدة للنبى الهندى ، كما يشرح

إقبال أهمية عقيدة ختم النبوة ، وأنها حراسة لكيان المجتمعات الإسلامية [1]

ومن الذين حاربوا هذه الحركة بقوة فى باكستان الأستاذ أبو الأعلى المودودى رحمه الله ، حيث بين سوءاتها ، وفند أقوالها ، وبين أن تكفير الأمة للقاديانيين ليس من نوع تكفير سائر الطوائف المختلفة بعضها بعضا ، وإنما هى طائفة خارجة خروجا كليا عن الإسلام ، ومن الذين تصدوا لذلك ــ أيضا الشيخ محمد الخضر حسين ، وغير هؤلاء من العلماء .

ومن خطر هذه الفرقة : أنها تحاول أن تثير أفكارها الهدامة من حين إلى آخر ، فقد طالعتنا مجلة المجتمع فى العدد ٦٤٧ فى ١٧ صفر ١٤٠٤ هـ بمقال ذكر فيه النشاط القاديانى ، وأنه وصل إلى الخليج ، ولذلك يحتاج الأمر إلى تنبه ، لاستمرار مواجهة هذه الأفكار الضالة .

وبعد :

فهذه دراسة للفرق المنحرفة تبين لنا فيها مظاهر التخطيط العدائى للإسلام وللمجتمعات الإسلامية ، المتمثلة فى اختيار القائمين عليها ، والأفكار التى تؤسس عليها ، والبيئات التى يظهر فيها ، والأفراد الذين توجه إليهم الدعوة ، والأساليب التى تتبع فى ذلك ، خدمة لأعداء الإسلام فى محاولة احتواء المجتمعات الإسلامية .

وبعد تناولنا لصور التحديات قديما وحديثا ، نتعرف على أسبابها ، وكيفية مواجهتها .

---

(١) انظر : القاديانية : ٢٣ ــ ٢٦ .



الفصل الرابع

أسباب التحديات ومواجهتها

أسباب التحديات ومواجهتها

أسباب التحديات قديما وحديثا :

لقد أثرنا فى بداية حديثنا عن التحديات أن المفاجأة لم تكن سببا من أسباب التحديات لرسول الله فى بداية الدعوة ، ولذلك علينا أن نتعرف على الأسباب الحقيقية وراء هذه التحديات ، والتى نجملها فيما يلى : ـــ

١ ـــ **الجهل والجمود العقلى** : فإن الإنسان قد يعادى مايجهل ، وهذا الجهل من الإنسان فى بداية الدعوة قد يكون له مايبرره ، ولكن الجهل الحديث جاء نتيجة عمل المستشرقين والمستغربين فى عملية التضليل التى قاموا بها لعرض الإسلام أمام الناس معكوسا ومشوها ، فأصبح أمام هؤلاء المضللين مجهولاً فى حقائقه ، وكان هذا من أسباب التحديات لمن عرفه على هذه الصورة خارج المجتمعات الإسلامية وفى داخلها لدى بعض الأفراد .

وهذا الجهل يسبب جمودا عقليا ، لايسمح لصاحبه بالتعرف الصحيح على حقائقه ، فيشغل نفسه بمهاجمته دون تدبر .

٢ ـــ **الإلف للموروث عن الآباء** ، وعدم الرغبة فى التغيير ، وخاصة إذا كان هذا الموروث قد مضى عليه زمن طويل . وهذا كان من الأسباب قديما ، وكذلك من الأسباب فى التحديات المعاصرة ، لما توارثه الأوربيون ومن تبعهم عن أساتذة الاستشراق .

٣ ــ **المقاييس الجاهلية التى تقدر الإنسان بما لديه من مال** ، وبما ينتمى إليه من عصبية ، حتى أن المشركين قد حكّموا هذه المقاييس فى أمر النبوة ، فالنبى فى نظرهم لايخرج عن هذه المقاييس ، يتضح هذا فى قول الوليد بن المغيرة :

(أينزل على محمد وأترك ؟ وأنا كبير قريش وسيدها ، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفى سيد ثقيف ، ونحن عظيما القريتين ؟ ونزل فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمت ربك ، نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا﴾ (١)

كما تظهر هذه المقاييس حديثا فى نظرة الاستعلاء الأوربية ، التى تجعل الأوربى سيدا ، وغيره تابعا له ، للأول أن يفكر ، وعلى الآخر أن ينفذ ، والعالم الأوروبى عالم السادة ، وأما العالم الثالث فمحتقرووحشى .

يتضح ذلك فى مقالة رجل أوربى عاد من مستعمرة أفريقية ، فسئل عن الناس فيها ، فقال : إنهم متوحشون ، ولما سئل عن مظهر هذا التوحش ، قال : تصوروا أن رجلا منهم عضنى وأنا أقتله . فالقتل من الأوربى أمر عادى ؛ لأنه السيد ، وأما العضة ــ ولو كانت دفاعا عن النفس ــ فهى مظهر من مظاهر التوحش .

هذه النظرة وهذا المقياس الجاهلى كانا من أسباب التحدى .

٤ ــ **الترف والشهوات** : وتقف هذه الشهوات عقبة فى طريق البناء

---

(١) الزخرف : ٣١ ــ ٣٢ .

العملى للنفس وللمجتمع ،ولإرساء القيم الخلقية الفاضلة ، ولذلك حرص عليه أعداء الإسلام ، ففى بروتوكولات صهيون « علينا أن نشجع الانحلال فى المجتمعات غير اليهودية ، فيحل الفساد ، ويعم الكفر ، وتضعف الروابط المتينة التى تعتبر أهم مقومات الشعوب ، فتسهل علينا السيطرة »[1].

٥ ـ **الخوف من ضياع المكانة فى قلوب الناس** ، وفوات المغانم المادية ، فإن المشركين كانوا يتمتعون بهيبة فى قلوب القبائل ، نظرا لقيامهم برعاية الأصنام وخدمتها ، وكانوا يحصلون من وراء ذلك مغانم مادية ، فخافوا من ضياعها :

﴿ وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا . أو لم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقا من لدنا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾[2] .

وأما فى عالمنا المعاصر ، فإن محاولة احتواء العالم الإسلامى ونهب ثرواته لايتم إلا بتذويب شخصية أبنائه ، وقتل روح الإسلام فيهم ، كما فى قول نابليون السابق ذكره .

٦ ـ **فساد التصورات فى الألوهية وفى النبوة** ، فالمشركون تعجبوا من التوحيد الذى سيحل محل الآلهة المتعددة ، فعندما قال لهم النبى ـ ﷺ ـ : « كلمة واحدة تعطونيها ، تملكون بها العرب ، وتدين لكم بها العجم » . قال له أبو جهل .

---

(١) انظر : شبهات التغريب : ٢٤ .

(٢) القصص : ٥٧ .

وأبيك وعشر كلمات ، قال « تقولون : لاإله إلا الله ، وتخلعون ماتعبدون من دونه ، فصفق الحاضرون بأيديهم — وكانوا فى مشهد احتضار أبى طالب — وقالوا : أتريد يامحمد أن نجعل لهم الآلهة إلها واحدا ! إن أمرك لعجب ويحكى القرآن الكريم قولهم هذا :

﴿ وقال الكافرون هذا ساحر كذاب أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ماسمعنا بهذا فى الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق ﴾[1].

وكذلك فساد التصور فى النبوة ، حيث ربطوها بالمقاييس الجاهلية السابق ذكرها ، كما أنهم لم يتصوروا أن يكون الرسول رجلا ، بل ينبغى أن يكون ملكا . قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لاينظرون ولو جعلناه ملكا : لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿ قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾[3] وهذا الفساد فى التصور له وجوده المعاصر فى بقايا اليهودية المحرفة والنصرانية المخرفة ، فى تصوراتهم الخاطئة فى الألوهية والنبوة ، وكذلك فى أقوال الفلاسفة الذين بحثوا قضايا الغيب بعيدا عن هداية الوحى .

٧ — **الحقد والحسد والمنافسة والاستكبار** : وهذه من الأمراض النفسية فى

(١) سورة (ص) : ٤ — ٧ وانظر : السيرة لابن هشام جـ٢ ص ٥٨ — ٦٠ .
(٢) الأنعام : ٨ ، ٩ .
(٣) الإسراء : ٩٥ .

كل عصر ، والتى تقف حاجزة لأصحابها عن الانتفاع بالحق ، وتحديه ، وهذا مادفع اليهود والنصارى وكذلك المستشرقين إلى الجحود للحق الذى عرفوه ، سواء عن طريق الوصف الذى جاء فى التوراة والانجيل ، أو عن طريق الدراسة التى وقف عليها المستشرقون .

قال معاذ بن جبل وبشر بن البراء لليهود : يامعشر يهود ، اتقوا الله ، وأسلموا ؛ فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ، ونحن على شرك ، وتخبروننا أنه مبعوث ، وتصفوه لنا بصفته : فقال أحدهم . ماجاءنا محمد بشيء نعرفه ، وما هو بالذى كنا نذكره لكم .[1] قال تعالى ﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾.[2]

٨ ـ اعتلاء الطبقة البديلة للأماكن المؤثرة داخل المجتمعات المسلمة ، وقد ساعدت فى إحداث الهزيمة النفسية ، التى تجعل المرء يحتقر نفسه ، ويكبر عدوه ويعجب بثقافته ، ويميت المقومات الثقافية الذاتية ، ليصبح مهيأ لتأثير التحديات فيه .

مواجهة التحديات قديما وحديثا :

وبعد تناولنا لصور التحديات قديما وحديثا والوقوف على أسبابها ، نعرض الآن لأهم عناصر المواجهة ، ونبدأ بذكر المواجهة منذ عصر النبى ـ

(١) السيرة لابن هشام : (٢ / ١٩٦) .

(٢) البقرة : ٨٩ .

ﷺ ــ ، لنفيد منها فى حديثنا عن المواجهة المعاصرة .

ونستطيع أن نحدد ملامح هذه المواجهة فى العناصر الآتية :

١ ــ الصبر ومفهومه :

وهو الخلق الذى تحلى به رسول الله ــ ﷺ ــ وأصحابه فى مواجهة صور التحديات على اختلاف وجوهها ، ونظراً لأهمية هذا الخلق فى المواجهة اهتم به القرآن الكريم ، فأمر به رسول الله ــ ﷺ ــ قال تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾[1] وأمر الرسول ــ ﷺ ــ به أصحابه ، واستفاض ذلك فى كتاب الله تعالى وفى توجيهات رسوله ــ ﷺ ــ ، ثناء على الصبر والصابرين ، وبيانا للوجوه التى يتأكد فيها هذا الصبر .

فلما اشتدت ضراوة قريش بالمستضعفين ذهب أحدهم ، وهو خباب ابن الأرت إلى رسول الله ﷺ يستنجد به ، وكان جواب رسول الله ــ ﷺ ــ التحلى بالصبر فى مواجهة هذه الشدائد ، كما صبر المؤمنون الأولون . قال خباب : شكونا إلى رسول الله ــ ﷺ ــ ، وهو متوسد برده فى ظل الكعبة ، فقلنا : ألاتستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟

فقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له فى الأرض ، فيجعل فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه ، فيجعل نصفين ، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه وعظمه ، ما يصده ذلك عن دينه ، والله ليتمن

---

(١) الأحقاف : ٣٥ .

الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، فلا يخاف إلاالله والذئب على غنمه ، ولكنكم تستعجلون »[1].

وكانوا لايفهمون معنى الصبر الذى أمروا به على أنه استكانة وتسليم بالأمر الواقع ، وإنما كان مصحوبا بالحركة وسلوك سبيل الخروج من دوائر الفتنة على القدر المستطاع ، فخرج الرسول ــ ﷺ ــ إلى الطائف ، وعرض نفسه على القبائل ، وفى الموقف ، ومما قال : ألا رجل يحملنى إلى قومه ؟ فإن قريشا منعونى أن أبلغ كلام ربى [2]

وكانت الحركة ــ أيضا ــ فى هجرة أصحاب النبى ــ ﷺ ــ إلى الحبشة مرتين ، وكانت كذلك فى تخليص المستضعفين من العبيد بالشراء والعتق من ذوى اليسار من المسلمين ، وكانت كذلك فى طلب الجوار ، كما تمثلت فى الدفاع عن النفس عند الاستطاعة ، فكان أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ إذا صلوا ذهبوا فى الشعاب واستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينا سعد بن أبى وقاص فى نفر من أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ فى شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون ، فناكروهم وعابوا عليهم مايصنعون ، حتى قاتلوهم فضرب سعد بن أبى وقاص يومئذ رجلا من المشركين بلحى بعير فشجه ، فكان أول دم أهريق فى الإسلام[3]

فالصبر كان ثباتا واستمرارا فى الدعوة ، وتحملا لما يصيب المؤمنين فى

---

(١) انظر : فقه السيرة للغزالى : ١٠٩ .

(٢) انظر : فقه السيرة للغزالى : ١١١ .

(٣) انظر السيرة لابن هشام : (١ / ٢٧٥) .

سبيل الله مع طرق الخروج السابقة .

٢ ـــ بيان وجه الحق أمام من لايعرف الرسول الكريم ، ظهر ذلك فى حديث « جعفر بن أبى طالب أمام النجاشى عندما أراد وفد قريش أن يشوه حقيقة الدعوة ، وأن يصف الرسول بما ليس فيه أمام النجاشى ، فكانت مقالة جعفر تصحيحا لهذا التشويه ، وهذا التحدى ، كما أن القرآن الكريم دافع عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ورد محاولات هذا التشويه .

٣ ـــ مواجهة التشكيك والشبهات ، بذكر الشبهة إجمالا ، والرد عليها تفصيلا ، وهذا يفيدنا فى مواجهتنا المعاصرة ، حيث لاينبغى أن نشغل عقول الناس بتفصيل الشبهة ، وإنما يكون التفصيل بالرد الذى يأتى بالجواب الشافى على جوانب الشبهة ، مع عدم افتراض الشبهات وتشقيقها .

٤ ـــ الرد العقلى الموضوعى على ماأثاره أعداء الإسلام ، وذلك ببيان وجوه الإعجاز فى كتاب الله تعالى .

٥ ـــ الحرص على تصفية المجالس من اللغو .

٦ ـــ بيان فساد العقيدة والتصورات الخاطئة ، وبناء التصور الصحيح فى نفوس المؤمنين .

٧ ـــ تقوية النفس أمام الإغراء والإرهاب ، والحزم ورفض المداهنة ،
٨ ـــ الحذر من تلبيس الأعداء ، والمجادلة بالتى هى أحسن .
٩ ـــ التحذير من وسائلهم فى التفريق بين المؤمنين .
١٠ ـــ معرفة صفات المنافقين ، وتجنبهم ، والحذر منهم .
١١ ـــ إعداد النفوس وبناؤها على القوة المعنوية ، والإعداد الحربى ، لمواجهة القوى المسلحة ، وكذلك إعداد المستطاع من القوة المادية من

أسلحة وغيرها .
بما عند العدو كما كانت فى دعوة المحاربين فى الإسلام وبيان حقائقه امامه .

١٢ــ الحذر والتأهب لمواجهة القوى الخارجية ، وإحباط خطط هجومهم .

هذه جملة من عناصر المواجهة قديما ، والتى ينبغى أن نفيذ منها فى مواجهتنا لصنوف التحدى المعاصرة ، وعلى قدر ضخامة هذه الصور ينبغى أن يكون الاهتمام بالمواجهة ، وذلك عن طريق : ــ

١ ــ البناء الصحيح والمتكامل للنفس المسلمة وللمجتمع المسلم ، وهذه المهمة ليست سهلة ، ولا ينبغى أن يقوم بها فرد ولا مؤسسة علمية وحدها ، وإنما تتضافر فيها جهود متعددة وتخصصات متنوعة فى فروع المعرفة ، لوضع خطة البناء للطفل وللشاب ، وللمرأة وللرجل ، وللتخصصات المهنية .

٢ ــ التكامل فى هذا البناء داخل المجتمعات المسلمة ، حتى نجنب أنفسنا التضارب وممارسة الهدم والبناء فى وقت واحد .

٣ ــ أن نقوم بدورنا فى الغزو الفكرى الإيجابى الصالح ، والذى يهدف إلى :ــ
أ ــ تعريف الآخرين بحقائق الإسلام ، حتى يتحرر من تضليل المستشرقين والمستغربين .
ب ــ الرد على الشبهات ــ على حجمها ــ ردا موضوعيا .

٤ ــ البناء المادى القوى الذى يخرج المجتمعات المسلمة من دائرة التخلف والتبعية ، ويجعل لها قوة تكسبها الاحترام لدى الآخرين .

٥ ــ منح الإنسان المسلم الثقة ، وتبصيره بوظيفته فى الحياة ، وذلك بكفالة انطلاقته الرشيدة ، لتحقيق طموحاته ، وصيانة كرامته ، وتجنيبه التجاوزات التى تحد من ذلك ، أو تشعره بالإهانة وعدم التقدير .

٦ ــ التخلص من آثار هذه التحديات فى العودة إلى تشريع الله وهديه فى نظمنا .

٧ ــ التخلص من آثار هذه التحديات فى تفريق الأمة فى ثقافتها ، وفى علاقتها ، فنكون لأنفسنا إطارا ثقافيا صحيحا ، لاخروج عنه ، وفى دائرته يتسع المجال لوجهات النظر غير المفرقة .

٨ ــ تحقيق مفهوم الأمة الواحدة ، التى لاتعرف الحدود ، ولا تعدد الجنسيات ، ولا التفاضل فيما بينها ؛ إلا على أساس التقوى .

٩ ــ أن تأخذ هذه المواجهة الجانب العملى التطبيقى ، وليس مجرد كلام لا يتبعه عمل .

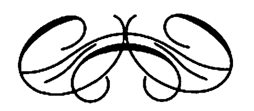
هذه أهم عناصر المواجهة التى تجعل أثر التحديات المعاصرة ضعيفا ، ولا تحقق طموحات العدو فينا .

ويبقى بعد هذه الدراسة لصور التحديات قديما وحديثا ، والوقوف على أسبابها وكيفية مواجهتها ؛ أن نسأل أنفسنا سؤالا لايمكن أن يسأله غيرنا ، وهو : لماذا يتعرض أهل الحق إلى هذه التحديات ؟ ولماذا لاينتصر أهل الحق أمام أى مواجهة بنصر الله سبحانه ؟

ولقد بين القرآن الكريم حقيقة هذا الأمر فى قوله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾[1] فلو شاء الله لما تعرض أهل الحق لهذا ، ولكن شاء أن يبلو بعضنا ببعض ، وإلا ، فكيف يتم إخراج النماذج القوية التى تؤسس عليها الأمة من بين ركام الجاهلية ؟

وكيف كانت تظهر الدعوة ، ويحرص المؤمنون عليها ، بحملها والتضحية فى سبيلها ؟ وكيف ترفع الدرجات ، ويتخذ الشهداء ؟

إن كل هذا يدعونا إلى التعرف السريع على سنة الله فى الصراع بين الحق والباطل .



(١) سورة محمد الآية : ٤ .

سنة الله فى الصراع بين الحق والباطل

من تدبرنا لكتاب الله تعالى نستطيع الوقوف على سنة الله ــ جل شأنه فى الصراع بين الحق والباطل .

يقول الله تعالى : ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾[1]

وواضح من هذا القول الحكيم أنه يجيبنا عن التساؤل الذى يمكن أن يطرح ، لماذا يتعرض أهل الحق لتحديات خطيرة فى أنفسهم وفى أموالهم ؟ ولماذا لاينتصر الله للحق بلا مغارم تلحق أهله ؟

فلو يشاء الله لانتصر من الكفار والمعاندين دون حاجة إلى هذا الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل ، ولكن اقتضت مشيئته أن يبلو بعض الناس ببعض ، ليميز الخبيث من الطيب ، وليعلم المجاهدين والصابرين الذين يحسنون الانتساب إلى الحق وقضاياه ، وليظهر أهل الادعاء والمحسوبين على الدعوة ظلما وزورا ، وليتخذ من عباده المؤمنين شهداء ، يرفع درجاتهم فى الآخرة ، ويسعد بهم أمتهم وليجزيهم حلاوة مابذلوا فى سبيله الأنفس والأموال ، ويعضون عليه بالنواجذ ، وليعتزوا به ، وليقدموه كأثمن مايكون هداية للعالمين ، وغير ذلك من الغايات التى لاتأتى إلا بالجهاد والمجاهدة .

---

(١) سورة محمد آية : ٤ .

يقول الإمام الطبرى فى تفسير هذا : يقول الله تعالى ذكره : هذا الذى أمرتكم به أيها المؤمنون من قتل المشركين إذا لقيتموهم فى حرب ، وشدهم وثاقا ، بعد قهرهم وأسرهم ، والمن والفداء ، حتى تضع الحرب أوزارها هو الحق الذى ألزمكم ربكم ، ولو يشاء ربكم ويريد لانتصر من هؤلاء المشركين الذين بين هذا الحكم فيهم بعقوبة منه عاجلة ، وكفاكم ذلك كله ، ولكنه تعالى ذكره كره الانتصار منهم عقوبتهم عاجلا إلا بأيديكم أيها المؤمنون ليبلو بعضكم ببعض ، فيقول : (ليختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء منهم ، ويتعظ من شاء منهم ، بمن أهلك بأيديكم ، حتى ينيب إلى الحق) [١].

ويقول الطبرى : وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال أهل التأويل ، عن قتادة : ولو يشاء الله لانتصر منهم ، أى والله بجنوده الكثيرة كل خلقه له جند ، ولو سلط أضعف خلقه لكان جندا) [٢].

ويقول القرطبى فى معنى ذلك : لانتصر منهم أى : أهلكهم بغير قتال ، وقال ابن عباس : لأهلكهم بجند من الملائكة ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، أى أمركم بالحرب ، ليبلو ويختبر بعضكم ببعض ، فيعلم المجاهدين والصابرين . [٣]

وترتيبا على هذا المعنى يمكن أن نضع أمام أعيننا الجوانب الآتية فى

(١) جامع البيان فى تفسير القرآن ــ الطبرى : ٢٥ / ٢٨ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الجامع لأحكام القرآن : ١٦ / ٢٢٩ ــ ٢٣٠ .

الصراع بين الحق والباطل :

أولا : الحق منصور دائما ، وله العاقبة فى المواقف كلها .

ويقول الله تعالى : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾ (١) .

ثانيا : إن انتسب إلى هذا الحق رجال ، وصار له أهل فإن الله تعالى يبلو أهل الحق وأهل الباطل ، بعضهم ببعض ، ومظاهر الابتلاء لأهل الحق فى الأمور الاتية :ـــ

١ ـــ هل أهل الحق مؤمنون بربهم وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وقضاء الله وقدره إيمانا صحيحا نافيا ؟

٢ ـــ هل هم مستجيبون لله ولرسوله فى شئون حياتهم كلها ؟

٣ ـــ هل قدموا لنصرة حقهم مايملكون من الأنفس والأموال ؟

٤ ـــ هل أعدوا مااستطاعوا من قوة بلا بخل مادى أو جبن نفسى ؟

٥ ـــ هل لجأوا إلى الله ، واستغاثوا به ، وتيقنوا أن النصر منه وحده ؟

٦ ـــ هل طهروا أنفسهم ومجتمعهم من مظاهر المعاصى والمخالفات الشرعية ؟

٧ ـــ هل وصلوا بحالهم الطيب إلى أهلية التمكين فى الأرض ؟

٨ ـــ هل عرفوا حقيقة عدوهم ، وكل مايتعلق به ؟

٩ ـــ هل اعتزوا بدينهم ، فبسطوا حقائقه ، وفندوا ما أثير من شبهات حوله ؟

إن كانت الإجابة عن هذه الأسئلة وما يدور فى فلكها بنعم ؛ فإن سنة

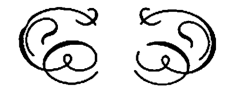
---

(١) الأنبياء : ١٩ .

الله عندئذ أن يكتب لهؤلاء النصر والتمكين ، وإن قل عددهم ، وكثر عدد عدوهم ، أو قلت عُدَدهم ، وتنوعت عُدَد عدوهم وزادت ، يقول الله تعالى : ﴿ إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ﴾ (١)

ويقول جل شأنه : ﴿ إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ (٢)

وإذا لم تكن الإجابة بنعم ؛ فإن سنة الله فى ذلك : أن يدع الفريقين يتصارعان ، وتكون الغلبة لمن كان أكثر عددا ، وأكثر خبرة فى فنون الحرب ، لأن المنتسبين إلى الحق فى مثل هذه الحالة قد تساووا مع أهل الباطل فى المخالفات التى تسخط الله عليهم فلا وجه للتأييد ، إلا إذا غيروا ما بأنفسهم ، وعلى هذا كان فهم أصحاب رسول الله ـ ﷺ (٣) وعلى صفحات التاريخ سجلت الوقائع التى تؤكد هذه الحقيقة .



(١) سورة محمد : آية ٧ .

(٢) سورة غافر : آية ٥١ .

(٣) انظر : جند الله فى معارك رمضان د . محمد رأفت سعيد .

الخاتمـــة

وبعد هذه الدراسة أوجز ما تناولته فيها من بداية التحديات ، وكيف كانت خروجا عن المنطق السليم ؛ حيث يواجه المعروف بالنكران ، ويقابل الإحسان بالسوء ، وكان الأولى أن تذلل السبل لمن جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، واتخذت هذه التحديات صورا منها :ـ

١ ــ الفتنة فى الأبدان : تعذيبا ، وتمثيلا ، وقتلا ، وفى الأموال مصادرة ، ومقاطعة ، ومغالاة على المسلمين .
٢ ــ إثارة الشبهات ، ومحاولة التشكيك فى شخصية الرسول ــ ﷺ ــ فيما يدعو إليه .
٣ ــ الإغـــراء .
٤ ــ المســـاومة .
٥ ــ السخرية والهمز واللمز .
٦ ــ أهل الكتاب من اليهود والنصارى .
٧ ــ النفـــاق .
٨ ــ القتـــال .
٩ ــ القوى الخارجية .

وهذه تمثل صورا قديمة استمرت على مر التاريخ ، وأخذت أشكالا معاصرة ، منها : الفتنة السابقة ، وكذلك إثارة الشبهات ، وتخصص لذلك فريق المستشرقين ومن تبعهم من المستغربين ، وكيف أعانوا التبشير ، ومهدوا لنقل التجارب المعوقة للمجتمعات المسلمة كالعلمانية ، وتضليل

المرأة ، وكيف استعمل فى هذه الشبهات التأويل الفاسد للنصوص والمواقف ، والجهل باللغة العربية وأساليبها ، والاعتماد على النصوص الموضوعة ، وكيف استعمل لذلك طريق البعثات الخارجية والمدارس الأجنبية .

ومن الصور الحديثة : تبنى محبى الزعامة فى إنشاء فرق ضالة تؤثر فى المجتمعات المسلمة ، كالبابية ، والبهائية ، والقاديانية ، ومنها :
الحرب النفسية المصحوبة بالإرهاب والسخرية ، واستعمال الكاريكاتير والمسرح فى ذلك ، لإحداث الهزيمة النفسية ، ومنها : الصهيونية والماسونية بنواديها ، والكيد اليهودى فى تمزيق جسد الأمة ، والصليبية الحاقدة ، والتنصير داخل المجتمعات المسلمة ، ومنها : النفاق المعاصر ، وأثره فى تعويق العودة الصحيحة إلى الإسلام بتكامله ، ومنها : القتال المدمر ، ومنها القوى الخارجية شرقية وغربية .

ومن الأسباب التى ذكرتها لهذه التحديات : الجهل والجمود العقلى ، والإلف للموروث عن الآباء ، والمقاييس الجاهلية ، والترف والشهوات ، والخوف من ضياع المكانة فى قلوب الناس ، والخوف من فوات المغانم المادية ، وفساد التصورات عن الله — سبحانه — وعن النبوة ، والحقد ، والحسد ، وخشية مواجهة المشاكل ، وتضليل الرأى العام الغربى فى قلب الحقائق المتصلة بالإسلام والمسلمين ، والأغراض الاستعمارية فى احتواء العالم الإسلامى ، وغير ذلك . وتناولت بعد ذلك المواجهة قديما وحديثا ، فكانت فى الصبر مع الحركة الواعية للخروج من دوائر الفتنة ، والثبات والاستمرار فى الدعوة ، وبيان وجه الحق أمام من لايعرفه ، وبسط حقائق الإسلام وترجمتها للآخرين ، والرد على الشبهات بعقل وحكمة وحجة

قوية ، وتقوية الأنفس أمام عوامل الهزيمة النفسية ، والتخطيط الثقافى الذى يبنى النفس والمجتمع بناء متكاملا ، وأن تكون أمة دعوة ، فتقوم بالغزو الفكرى الصحيح الذى يسعد البشرية ، وأن نبنى أنفسنا بناء ماديا قويا يجبر الآخرين على احترامنا ، ويخرجنا من دائرة التبعية والتخلص من آثار التحديات السابقة فى تفريق الأمة وفى ثقافتها وفي علاقاتها ، وتحقيق مفهوم الأمة الواحدة ، وأن تأخذ هذه المواجهة الجانب العلمى التطبيقى ، ثم ذكرت أن هذا الصراع بين الحق والباطل من سنن الله فى هذه الحياة ؛ ليميز الخبيث من الطيب ﴿ ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد .



المراجـــع

القرآن الكريم .

الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية .

د . قاسم السامرائى ـــ منشورات دار الرفاعى للنشر والطباعة .. ط أولى ١٤٠٣ هـ ـــ ١٩٨٣ م .

إنتاج المستشرقين وأثره فى الفكر الإسلامى الحديث .

الأستاذ مالك بن نبى ـــ دار الإرشاد للطباعة والنشر« ط » أولى ١٣٨٨ هـ ـــ ١٩٦٩ م

البابيون والبهائيون .

عبد الرزاق الحسينى .

البهائيـــة .

السيد محّب الدين الخطيب ـــ المكتب الإسلامى ط سنة ١٤٠٠ هـ

البهائية : تاريخها وعقيدتها وصلتها بالباطنية والصهيونية

عبد الرحمن الوكيل « ط » أولى ١٣٨١ هـ ـــ ١٩٦٢ م

البهائية : نقد وتحليل .

الأستاذ إحسان إلهى ظهير « ط » ثانية ١٤٠١ هـ .

تاريخ البابية أو مفتاح باب الأبواب .

د . ميرزا محمد مهدى خان ـــ مجلة المنار سنة ١٣٠١ هـ .

الجامع لأحكام القرآن .

لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى . طبعة وزارة الثقافة القاهرة ١٣٨٧ هـ ـــ ١٩٦٧ م

جامع الأصول فى أحاديث الرسول .
للإمام مجد الدين أبى السعادات المبارك بن محمد : ابن الأثير الجزرى ٥٤٤ ــ ٦٠٦ هـ تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط .
جامع البيان فى تفسير القرآن .
أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى سنة ٣١٠ هـ ــ دار المعرفة بيروت .
جند الله في معارك رمضان .
د. محمد رأفت سعيد . ملحق مجلة الجندى المسلم العدد ٣٣ ، سنة ١٤٠٤ هـ .
حاضر العالم الإسلامى .
تأليف : لوثروب ستودارد الأمريكى ــ ترجمة الأستاذ عجاج نويهض تعليقات الأمير شكيب أرسلان ــ دار الفكر « ط » ثالثة ١٣٩١ هـ .
الحركات الهدامة : القاديانية .
أبو الحسن الندوى ، أبو الأعلى المودودى ، ومحمد الخضر حسين . الدار العربية للطباعة والنشر .
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء .
للحافظ أبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهانى . المتوفى سنة ٤٣ هـ دار الكتاب العربى بيروت « ط » . ثالثة ١٤٠٠ هـ ــ ١٩٨٠ م
خطابات عبد البهاء .
خفايا الطائفة البهائية .
د . أحمد محمد عوف . الناشر : دار النهضة العربية ، القاهرة ١٩٧٢ م

دراسات عن البهائية البابية .

تأليف : الأستاذ محب الدين الخطيب والمستشار على منصور والأستاذ : محمد كرد على والأستاذ محمد فاضل

ذيل الملل والنحل .

السيرة النبوية .

لابن هشام . تحقيق : محيى الدين عبد الحميد ، ونسخة أخرى حققها مصطفى السقا ، وإبراهيم الإبيارى ، وعبد الحفيظ شلبى .

السيرة النبوية فى القرآن .

د . عبد الصبور مرزوق ــ سلسلة دعوة الحق ــ رابطة العالم الإسلامى مكة المكرمة . العدد ٦ .

السيرة النبوية .

السيد أبى الحسن على الحسنى الندوى ــ دار الشروق « ط » أولى ١٣٩٧ هـ .

شبهات التغريب فى غزو الفكر الإسلامى .

الأستاذ أنور الجندى ــ المكتب الإسلامى ١٣٩٨ هـ ــ ١٩٧٨ م

صحيح البخارى .

المكتبة الإسلامية ــ استانبول ــ تركيا .

الغزو الفكرى والتيارات المعادية للإسلام .

د. عبد الستار فتح الله سعيد « ط » ثانية ١٣٩٩ هـ ــ مكتبة المعارف .

الفرق بين الفرق .

عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادى . المتوفى ٤٢٩ هـ ــ ــ ١٠٣٧ م

تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار المعرفة بيروت لبنان.

الفصل فى الملل والأهواء والنحل .

الإمام أبو محمد على بن حزم الظاهرى . المتوفى سنة ٤٥٦ هـ دار الندوة الجديدة ، بيروت ، لبنان .

فضائح الباطنية .

أبو حامد الغزالى ــ حققه وقدمه له عبد الرحمن بدوى ــ الدار القومية للطباعة والنشر ــ القاهرة ، ١٣٨٣ هـ ــ ١٩٦٤ م

فقه السيرة .

الأستاذ محمد الغزالى « ط » سادسة ١٩٦٥ م ــ دار الكتب الحديثة .

القاديانى والقاديانية : دراسة وتحليل .

الأستاذ أبو الحسن على الحسنى الندوى . الدار السعودية للنشر ط . الرابعة ١٣٩١ هـ .

القاديانية : دراسة وتحليل .

الأستاذ إحسان الهى ظهير ط ثالثة سنة ١٣٩٥ هـ .

المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها .

د . عبد الرحمن عميرة .

معمر بن راشد الصنعانى : مصادره ومنهجه ، وأثره فى رواية الحديث .

د . محمد رأفت سعيد ط أولى ــ عالم الكتب بالرياض .

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٧٠٢٩ / ٨٦

الترقيم الدولى ٠ ــ ٨٦ ــ ١٤٢٠ ــ ٩٧٧

الفهرس

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

مطابع الوفاء ـ المنصورة
شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٢١ – ص.ب : ٢٣٠
تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN